تمنياتي لكم حُسن الأفادة ..علي مولا

رواية العزبة

دكتور محمد محفوظ

www.alkottob.com

رواية جريئة

اقرأها .. لتتعرف على الشياطين و الصالحين و الجائرين و السناكيم

اقرأها .. لتكتشف سر الصوت المجهول و سر الصولجان المسروق

اقرأها .. لتعرف الحاكم و المستشار الفاجر و مستشار الخوف و مستشار إبليس

اقرأها .. لتتعرف على النهب المنظم و ثنائية الفكر و الإرادة

و ثنائية الثورة الشعبية و المؤامرة الانقلابية

اقرأها .. لتعرف من هى نورجان .. وكيف انتهى بها المصير

اقرأها .. من داخل عالم ....

ذلك العالم الموازى

الكائن فى الزمان بلا مكان

www.alkottob.com

(....شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض ....)

(سورة الأنعام ـ الآية □□)

لم يدفعنى إلى هذا العالم اللامرئى ، إلا حبى للقراءة .

ولطالما راوغت رغبتى الجامحة فى قراءة هذا النوع من الكتب ، والتى كانت تطالعنى دائماً على أرفف المكتبات ، وعند بائعى الصحف على الأرصفة .

والمدهش .. أن هذه الكتب كانت منتشرة بأعداد ضخمة وأسعار معقولة . وكان هذا يدفعنى دائماً للتعجب . فكيف تتم مصادرة كتابات بعض المفكرين بواسطة بعض المؤسسات الدينية ؟ بينما تُترك هذه الكتب التى يختلط فيها اليقين بالخرافة ، والحقيقة بالخيال ، والدين بالدجل والشعوذة .

وكنت دائماً أهتم بقراءة عناوين هذه الكتب . وأتأمل الرسومات على أغلفتها ، بألوانها الفاقعة الصارخة ، وملامح رسوماتها

www.alkottob.com

الممسوخة ذات الأنياب والقرون والعيون الحمراء . وكنت كلما هممت بالتقاط أحد تلك الكتب لأتصفحه أو لأطلع على فهرسه ، يتملكنى خوف غريزى وخجل عقلى سرعان ما يجعلانى أحيد عن تلك الرغبة . فكيف أسمح لنفسى وأنا أؤمن بثقافة العقل أن أنحدر إلى هذا الدرك من ثقافة الخرافة . وكيف أخاطر بالاتصال بعالم مجهول تماماً ، بينما أنا أعانى فى وسط عالمنا هذا رغم علمى بالكثير عن تفاصيله ودقائقه . كيف أطمئن بالمجهول ، بينما يأكلنى القلق فى الظاهر المعلوم .

ولكن .. كما يقول المثل الدارج "الحذر لايمنع قدر" . ففى إحدى سفرياتى للقاهرة لقضاء أمر شخصي . أدى الروتين الحكومى إلى اضطرارى للإقامة بإحدى اللوكاندات حتى اليوم التالى . وفى حجرتى باللوكاندة أثناء وضع حقيبتى بالدولاب ، وجدته أمامى .. فيبدو بأن النزيل السابق بالغرفة كان قد تركه سهواً . كان كتاباً من الحجم المتوسط ، تنطبق عليه كافة مواصفات تلك الكتب من الألوان الصارخة على الغلاف ، والملامح الشيطانية . وكان عنوانه من كلمة واحدة .... "الجن" .

* * * *

ما اجتمعت أنا وكتاب فى مكان ، إلا وكانت ثالثتنا القراءة . ولقد كان الجو مهيأ لذلك تماماً . فوحدتى فى الغرفة ، وطول ليل

www.alkottob.com

الشتاء ، وإدمانى للقراءة ، دفعتنى إلى التخلى عن حذرى وخوفى وخجلى . ولم أنم إلا وكنت قد انتهيت من قراءته .

* * * *

أضفت إلى مكتبتى رفاً جديداً . فبالإضافة إلى رف لمؤلفات النقد الأدبى ، ورف للروايات والقصص والأشعار ، ورف للمؤلفات السياسية ، وآخر للكتابات الفكرية ، وآخر لمؤلفات الاتصال و الإعلام . فقد أفردت رفاً جديداً لكتب "عالم الجن" . ولطالما كنت أشعر بالخجل الشديد وأنا أخرج من إحدى المكتبات و فى يدى كتاب عن "عصر المعلومات" وكتاب آخر عن "الجن" . ولكن إدمانى للقراءة كان ينتصر دائماً على إحساسى بالخزى والخجل . ولو أن ذلك لم يمنعنى من الالتزام بقيد صارم آليت على نفسى عدم التفريط فيه . حيث قررت منذ الكتاب الأول ألا أنزلق إلى ساحة التجريب ، أو وفقاً لمصطلحات تلك الكتب "التحضير" . فلقد قرأت كثيراً عن تحضير الجن واستدعائه واستخدامه ، أو إخراجه من جسد الممسوس والمربوط والمسكون . ورغم شغفى بالقراءة إلا أننى لم أجد داخلى أى رغبه فى تجاوز القراءة إلى التجربة . فلقد كان عقلى يأبى أن ينزلق إلى أبعد من ذلك . وكنت أنا نفسى أرفض أن أستبدل إيمانى بالعلم بشغفى بالخرافة .

* * *

www.alkottob.com

لا أستطيع أن أحدد بدقة متى بدأت أشعر بتلك الأشياء . ولا شك أنها بدأت مبكراً ، ولكننى كنت فى البداية لا أوليها اهتمامى ، وتتغلب مشاغلى وأفكارى عليها . ولكن بمرور الوقت بدأت أشعر بأننى مراقب . فأينما جلست أو سرت داخل المنزل كنت أشعر كأن أحداً يتبعنى أو أن عيوناً متلصصة ترقبنى وتتتبع خطواتى ، ثم بدأت الأمور تتطور . فلقد كنت أشعر ليلاً أثناء النوم أن ثمة يداً تتجسسنى . وفى البداية كنت أعتقد بأننى أحلم . ولكن تكرار الأمر وتطوره إلى درجة استيقاظى لأجد نفسى عارياً ، جعلنى أدرك بأن هناك شيئاً غير عادى يحدث لى . ولقد دهمنى اعتقاد جازم بأننى جننت ، ولكن إشفاقى على نفسى جعلنى أفسر الأمر بطريقة سيكولوجية ، دفعتنى إلى الاقتناع بأننى أصبت بانفصام فى الشخصية أو بداء السير أثناء النوم . ولقد سيطر علىّ هذا التفسير السيكولوجى إلى حد شروعى فى البحث عن طبيب نفسى لأعرض عليه حالتى .

ولكنها .. لم تجعلنى أسير فى هذا الطريق إلى النهاية ، فلقد ظهرت لى .

* * * *

ـ أنا .... نورجان ..

www.alkottob.com

هكذا قالت لى فى أول لحظة لظهورها . ووقتها أدركت بأننى جننت تماماً ، وأن انفصام الشخصية والسير أثناء النوم أمنيات غالية بالقياس بما أنا فيه . ولقد سمرنى الرعب فى فراشى ، وسرت رعشة بجسدى كله ، وعرفت وقتها معنى أن يقف شعر الرأس .

ـ أنا .... نورجان ..

هكذا قالت مرة ثانية ، إلا أننى كنت قد بدأت أشعر بدوار شديد ، وأيقنت بأننى فى طريقى لأن أفقد الوعى .

* * * *

تكررت مرات ظهورها . وبعد معاناة بدأ الأمر يصبح مألوفاً لى بعض الشىء . ولم أصدقها فى البداية عندما صرحت لى بأنها من الجن ، لأننى كنت قد سلمت تماماً بفكرة سقوطى فى بئر الجنون . ولكن بمرور الوقت لاحظت بأن تعاملاتى مع أسرتى ومع الآخرين لم يطرأ عليها أى اختلاف ، بالإضافه إلى أن مستوى أدائى فى العمل لم يتعرض لأى اهتزاز أو اضطراب . ولذلك بدأت أتعامل مع الأمر على أنه ظاهرة خارقة ، قد يصعب على العقل فهمها ، ولكن يمكنه التعامل معها.

www.alkottob.com

ولعل الحقيقة التى لايمكن إنكارها هى .. أنها جميلة ، بل فاتنة ، ولو أننى أدركت بعد ذلك أنها متوسطة الجمال بمقاييس عالمها . إلا أنها بمقاييسنا رائعة الجمال . ولقد أيقنت عند رؤيتى لها بأن معظم الكتب التى قرأتها عن أبناء جنسها لاتستحق إلا الحرق . وأنها لاتحوى إلا أكاذيب وخزعبلات . لأن الحقيقة الأساسية التى لايمكن إغفالها ، هى أن لغاتنا وكافة رموزنا البشرية لايمكنها أن تصف هذا الخلق المغاير . قد يمكن أن ننقل الانطباعات والمعانى ونختزلها إلى كلمات . لكن الأوصاف لايمكن بأى حال أن نجد لها فى لغاتنا أو رسوماتنا أية كلمات أو مرادفات أو ملامح أو ألوان . إنها أوصاف ليس لها شبيه فى عالمنا المعروف ... عالم البشر .

* * * *

كان الجنس أحد المعالم الهامة فى علاقتنا ، ولكنه لم يكن كل شىء فيها . فقد كان مجرد حضورنا معاً يمنح كلينا إحساساً مفعماً بالدفء والأمان . هل هو الاختلاف التام فيما بيننا الذى يجعل عمر الدهشة بلا نهاية ؟ فيتجدد دائماً الشعور بالانبهار الذى يقضى على أى مشاعر بالملل .. لا أدرى ، ولكن الجنس أيضاً كان شيئاً مغايراً . لايمكننى الوصف ، فهو فعل يختلف تماماً عما يمارسه البشر . ولكنه كان يتمثل فى إحساس جارف بالانغماس

www.alkottob.com

فى لذة طاغية ، تمنح النشاط والحيوية أكثر مما تجلب الوهن والخمول . كأنها نوع من ممارسة الحياة بشكل أفضل ، بل هى أفضل الأشكال . ولذلك كانت فترات الصمت تطول بيننا ، أكثر كثيراً من فترات الاتصال . ولعلنى أقول الاتصال ، لأنه كان تخاطباً من نوع غريب . فكل منا يتحدث لغته ولكن الآخر يفهمه ، كأن مترجما يجلس بيننا فيترجم لها لغتى ويترجم لغتها لى .

ولكن رغم ندرة جلسات حديثنا ، إلا أننى كنت دائماً أحاول التقاط كل ما يمنحنى المزيد من المعرفة عن عالمها وأحداثه وأحواله . ولقد فهمت منها بأن عالمهم لايوجد تحت الأرض كما يعتقد بعض البشر ، ولا على سطحها ، ولا أعلاها أو أسفلها ، أو حتى بجوارها أو بعيداً عنها على كوكب آخر . ولكنه عالم موازٍ ، يوجد فى الزمان ولا يوجد فى المكان . ولقد أثارت مسألة الفصل بين الزمان والمكان بيننا جدلاً سرفسطائياً . فكل منا حقاً يفهم لغة الآخر . ولكنه لايفهم رموزها ولا خلفياتها الاجتماعية والفلسفية ، أو حتى قوانينها الطبيعية والوضعية . ولكن بمرور الوقت بدأ كلانا يدرك بأنه لاسبيل إلى فهم ما هو فوق الفهم ، وبدأنا نكتفى بروعة مواجهة الجديد واللامعقول .

ولكن يوماً بعد آخر ، بدأت أتوق إلى رؤية هذا العالم الذى أسمع عنه منها فقط ، ولا أراه إلا بعين خيالى . ولقد ترددت كثيراً قبل

www.alkottob.com

أن أصارحها برغبتى هذه ، وذلك لشكى فى جواز حدوث ذلك أصلاً ، ولخوفى من تأثير ذلك حال حدوثه على بنيتى الإنسانية . ولكن رغبتى غلبت ترددى وصارحتها بذلك . وعبّرت عن ترددها بعض الشيء ، لخوفها من انكشاف أمر علاقتها بى وسط أبناء جنسها . ولكننى تعهدت لها بأننى سألتزم بكافة محاذيرها . لخوفى عليها أولاً ، ولرغبتى الصادقة فى استمرار علاقتنا ثانياً .

* * * *

اختلقت رواية عن رحلة سفر ينبغى قيامى بها ، لأبرر غيابى لأسرتى . وتقدمت بطلب للحصول على إجازة من العمل . وكنت كلما اقترب الموعد الذى حددناه لانتقالى معها إلى هناك ، ينتابنى إحساس بالهلع ، سرعان ما يجعلنى أقرر ضرورة إلغائى لهذه المغامرة المجهولة التى أقامر فيها بحياتى. ولكننى كلما التقيت بنورجان أجدنى أخجل من إظهار خوفى أمامها وأتجاهل تماماً ما عزمت عليه من قبل .

ولقد مرت الأيام سريعاً . ووجدتنى وجهاً لوجه مع ذلك اليوم الموعود وأسقط فى يدى ، فلم يعد هناك مفر ، ولم يبق لى إلا الظهور بمظهر المتماسك المقدام . وأخذت أبرر لنفسى بأن مواجهة المجهول لكشف غموضه وأسراره تستحق كثيراً من المغامرة والمقامرة . ومادامت قد انقطعت كل خيوط التراجع،

www.alkottob.com

فليس أمامى إذن إلا الارتحال لاستكناه غيب ذلك الكائن فى الزمان بلا مكان . الارتحال إلى... عالم الجن .

* * * *

ما إن صافحت نفسى واقع هذا العالم المحجوب ، حتى أدركت مدى قصور الخيال الإنسانى. ومحدودية العقل البشرى فى قدرته على الهروب من الواقع المحيط للتحليق فى عالم الخيال . وانغماس فرشاة الرؤية الإنسانية فى ألوان الأرض وترابها فلا تبتكر خطوطها إلا تكرارات ممسوخة من الأصل الخلاب . ولقد مرت بمخيلتى أعظم منجزات السينما العالمية فى مجال الخيال العلمى ، وأخلد الملاحم الأدبية الأسطورية . وحاولت مقارنتها بهذا العالم العجيب ، فكانت أشبه بخيال شاحب باهت تخترقه الأنظار ، وسط تكوين حقيقي صارخ الأوصاف والملامح ، حاد الجوانب والقسمات ، فاقع الألوان والظلال ، نابض بالقوة والروعة والجلال .

إن الأرض تجذبنا فلا نرى أبعد من تحت أقدامنا ، والواقع يحاصرنا كفقاعة صابون لانرى إلا صورتنا المنعكسة على جوانبها اللامعة ، بينما الكون من خارجها يموج باللامعقول واللاموصوف .

www.alkottob.com

يمكننى نقل الانطباع ، يمكننى نقل المعنى ، ولكننى أعجز عن الوصف ، فاللغة وعاء لما نعرفه، وعاء يتفتت عند مواجهته لغير المعروف .

ولقد غمرنى هذا العالم المحجوب بلا معقولية تفاصيله ودقائقه ، فوجدتنى أغوص فى إحساس دافق بالدهشة ، دهشة تختزل كل تفكير وتحوِّل العقل إلى كتلة هلامية تختزن الصور والمرئيات ، ولا تمتلك أية قدرة على الاستدلال والمقارنة والتحليل والاستنباط . كما اكتشفت أننى لم أعد أتذكر أى شىء عن عالمى ، فذاكرتى انمحت تماماً ، ولم أعد أدرك إلا أننى غريب عن هذا العالم الجديد ، ولكننى ابن لعالم قديم ومألوف أصبحت لا أتذكر عنه شيئاً .

ولقد سارعت نورجان بانتشالى من ذهولى ، بإفهامى بأن عقلى البشرى لايمكنه أن يستوعب كل هذا الجديد وغير المألوف دفعة واحدة ، بدون أن يتخلص تماماً من كل القديم المعهود . ولن يطفو عالمى البشرى على سطح ذاكرتى ثانية ، إلا بعد استيعابى لتفاصيل هذا العالم الجديد . ولكن بمجرد استردادى لذاكرتى البشرية ، فإننى سأنتقل مرة أخرى إلى عالمى البشرى خلال وقت قصير .

www.alkottob.com

ولقد أراحنى هذا التفسير . فتأهبت لفتح أبواب ذاكرتى الفارغة على مصراعيها لتستوعب هذا الفيضان الهادر لعالم تدب فى كافة أوصاله حياة مجهولة ، حياة لا أدرى ـ حتى الآن ـ عن كنهها شيئاً .

* * * *

الأحوال

ما إن حللت بهذا البلد ، وجبت أقطاره ، إلا وقد أحطت بمجمل أحواله دون التفاصيل . فثمة جو ثقيل خانق يخيم على الأنحاء وينشر ذيوله فى الزوايا والأركان . بينما يبدو الانكسار وتظهر المذلة كأحجار ثقيلة معلقة فى أعناق الرائحين والغادين . ويقفز الذهول كمطرقة تضرب كل الوجوه فينطلق الشرود كحبل طويل من العيون يلف كل عابر وكل مقيم .

ولقد أحاطت الفوضى بكل شيء . فلا معنى للنظام أو الالتزام . فالأمور تسير وفقاً لقواعد عشوائية لا يحكمها إلا التسيب والإهمال .

ولقد أدركت بأن للفقر ملامح لا تخطئها النفس الذكية رغم اختلاف العوالم والأحوال . فلقد أقام الفقر دولته فى هذه البقاع ،

www.alkottob.com

وسيطرت الفاقة والحاجة على النفوس ، حتى صار الكل يتقاتل من أجل النجاة من الموت جوعاً ... ولكن وسط كل هذا الشقاء تتناثر هنا وهناك أبهة وفخفخة تصدم العقول ، وتتجاوز كل حدود الممكن والمتاح ، فكأن أصحابها زهزهت لهم الدنيا ، وهم لا يقنعون إلا بالمزيد والمزيد .

وعلمت من نورجان بأن هذا البلد يقع فى وسط هذا العالم ، الذى تمتاز أطرافه الزمانية الشمالية والغربية وبعض الجنوبية والشرقية بالقوة والتقدم والرفاهية . بينما يسيطر التخلف والضعف والفقر على بلدان أزمان الوسط والجنوب والشرق . ويبرر الشياطين تردى أحوال تلك البلدان لسابق استعمارها من دول الأطراف . بينما يقرر الصالحون بأن خيرات الله ونعمه - بتلك البلدان - لو تم توزيعها بالعدل لعاش الكل فى بهجة ونعيم .

وسردت لى نورجان التاريخ المعاصر لهذا البلد ، الذى كان فى السابق تحت حكم النظام الملكى . إلى أن تمكن مجموعة من الثائرين من تدبير تمرد أطاح بالملك ، وتحولت البلاد إلى الحكم الجمهورى . وأصبح قائد هذا التمرد بمرور الوقت بمثابة رمز محزن للثورى الطاهر الذى أفسدته السلطة . فانقلب على كافة رفاقه ومعاونيه ، ورفض تسليم الحكم للصالحين ، وركز كل السلطات بين يديه ، وزج بالبلاد فى عدة حروب ومغامرات وعداوات ، أزهقت

www.alkottob.com

الأرواح ، والتهمت الأرزاق ، حتى صار الصالحون يطلقون عليه فى أواخر أعوام حياته وبعد مماته " مستشار إبليس" . وورث الحكم من بعده تلاميذه وعصبته ، فحولوا البلد إلى تركة ينهبون خيراتها ، ويوزعون على العباد شرورها . واستمرت الأحوال حتى تسلم مقاليد الأمور الحاكم الحالى ، والذى وإن اختلفت وسائله وطرقه ، فإن محصلة حكمه ما كانت إلا امتداداً لسلسال واحد تشعب بخفاء فى كافة مؤسسات الحكم والسلطة ، وحين تنبه الصالحون ، كانت البلد بالكامل قد سقطت فى قبضة الشياطين الذين تحلقوا حول المناصب حتى لاينفذ إليها أحدٌ غيرهم ، وإن سارت الأمور أحياناً على غير ما يشتهون ، ودانت الأمور لأحد الصالحين ، فسرعان ما كانوا يدبرون له المكائد والمؤامرات ، حتى يخرج من منصبه بفضيحة تظل تلاحقه إلى آخر الزمان .

وشرحت لى نورجان كيف توصلت بلدان الأطراف الزمانية المتقدمة إلى نظرية فريدة لنظام الحكم، تتيح لكافة القوى المجتمعية إمكانية الوصول للسلطة ، من خلال أسلوب الانتقاء أو الاختيار أو الانتخاب الحر. ولكى يتم ذلك الانتخاب فى إطار كامل من الحرية والاستقلالية ، توصلت تلك النظرية إلى ما يسمى بدولة المؤسسات ، وتمثل تلك المؤسسات كافة الأفرع الرئيسية التى ينتظم منها بناء أية دولة ، فهناك المؤسسة الشعبية

www.alkottob.com

التشريعية ، ومؤسسة القضاء والعدل ، ومؤسة الحكم والإدارة ، وأخيراً مؤسسة الإعلام التى أفرزتها العقود الأخيرة نتيجة تقدم وسائل الاتصال . وتمارس كل من تلك المؤسسات دورها فى الرقابة على المؤسسات الأخرى، وهدفها النهائى هو تحقيق الرفاهية للشعب ، والذى بدونه ما كانت لتوجد الدولة . فأى قرار أو هدف لا يرعى مصلحة الشعب هو فى مضمونه خيانة لآماله وتطلعاته ، ولا يسعى إلا لخدمة مصالح صانعيه . وبذلك أصبح الحكم فى الدول المتقدمة حكماً مقيداً غير مطلق ، لايقتصر على فئة معينة أو طبقه معينة أو اتجاه سياسى معين . فهو حكم من يختاره الشعب ليحقق ما يريده الشعب بواسطة الشعب .

وقد استعارت بعض دول أزمان الوسط والجنوب والشرق هذا النظام الفريد . ولكنها طبقته كشكل أجوف بلا مضمون . فالانتخاب الحر تحول فى تلك الدول إلى انتخاب موجه يتم من خلال التلاعب بإرادة الناخبين . والمؤسسات التى تراقب بعضها البعض تحولت إلى مؤسسات تتواطأ مع بعضها البعض لخدمة مصالح الفئة الحاكمة . وتوارت مصلحة الشعب وآماله أمام مصلحة رموز السلطة ورغباتهم ، حتى أصبح نظام الحكم فى تلك الدول صورة معدلة من صور الحكم المطلق الذى يقتصر على فئة معينة ، ولا سبيل إلى انتقال الحكم منها إلى أية قوة

www.alkottob.com

مجتمعية أخرى بالوسائل السلمية . ولذلك بزغت بتلك البلدان جماعات الجائرين كتنظيمات سياسية مسلحة ، تدبر الاغتيالات السياسية وتمارس العنف بهدف الإطاحة بالسلطة .

.... اتهمتُ نورجان بعد كل ما سمعته منها بالتشاؤم . فالأوضاع في بلدها لا يمكن أن تكون بمثل هذا السوء وتلك البشاعة . ولا شك بأن ما لاحظته بنفسي من فاقة وفقر ، يرجع إلى أسباب وظروف متداخلة و متعددة ، وليس إلى مجرد فساد السلطة ، وصارحتها بأنني لن أقتنع إلا بما يؤكده لي تحليلي الذاتي وتجربتي الشخصية ، لأنني أعتز باستقلالي الفكري ولن أستسلم لمجرد تحليلها الخاص للأمور . والحق أنني قلت ذلك بلساني فقط ، لكي أظهر أمامها بمظهر المفكر الحر صاحب الرؤية . ولكنني بداخلي كنت مقتنعاً بصحة كل ما قالته رغم أنني لم أعاينه بنفسي . فثمة شعور دفين كان يطفو بين الحين والآخر إلى سطح عقلي ، ليؤكد لي بأنني عشت يوماً ما هذه الظروف والأحوال من قبل ، وإنني كنت أردد يوماً ما نفس تلك الآراء والأفكار ، ولكنني لا أتذكر متى كان ذلك ، ولا أين ؟ فلقد أصبحت غريباً في عالم جديد ، أعرف - كلما مر الوقت - عنه شيئاً ، بينما عالمي القديم الذي جئت منه ، أصبحت لا أذكر منه شيئاً .

* * * *

www.alkottob.com

الحاكم

ما يتردد عن سيرته الذاتية والعملية ، وعن قدراته الذهنية والجسدية ، وكفاءته القيادية والإدارية ، وعلاقاته الأسرية والشعبية ، كلها محض أكاذيب ، تروجها كتائب الإعلام التابعة لجهاز الحكم. والتى تستخدم أحط الأساليب الشيطانية للوصول إلى مآربها ، وتقوم سياستها القذرة فى بناء السيرة الذاتية للحاكم على جمع حقائق صغيرة جداً وخلطها بأكاذيب كبيرة جداً ، بحيث تصبح الحقائق الصغيره دليلاً على صدق الأكاذيب الكبيرة . وباستخدام أساليب التكرار والتذكير والمطاردة والملاحقة اليومية للعقول ، واصطناع المواقف والقصص وردود الأفعال ، تتحقق بمرور الوقت السيادة للسيرة المصطنعة ، بينما تتوارى فى الخفاء السيرة الحقيقية .

ولكن لأن المعرفة قوة . ولأن المعلومة الخطيرة تضفى على ناقلها مهابة وجلالاً .فإن صانعى الأكاذيب أنفسهم هم مسربو الحقائق . ولئن تم ذلك فى أضيق نطاق ، داخل حجرات النوم على صدور المومسات والغوانى ، أو على ظهور الشواذ والمراقيع . إلا أن ذلك يتيح دائماً للحقيقة أن تظل على قيد الحياة ، ولكن لا يكتب لها الانتشار إلا بعد رحيل الحاكم وزوال عصره وسلطانه .

www.alkottob.com

ولقد علمت من نورجان بأن أصوله المتواضعة والتى تصورها دائما كتائب إعلامه باعتبارها مدعاة للفخر والزهو ، كرمز للكفاح والعزيمة والقدرة على ارتقاء سلم المجد من القاع حتى قمة السلطة ، تلك الأصول تمثل أحد نقاط الضعف الخطيرة فى سيرته الذاتية . فلقد كان والده مرتشياً يتاجر بحقوق العباد التى بين يديه بحكم عمله كموظف صغير فى جهاز تابع للدولة . وتمكن بفضل خدماته غير الشرعية لبعض المقربين والمنتفعين فى زمن الملكية ، من أن يضع ابنه على أول الطريق الذى يتيح له الانتقال لطبقة أخرى . كما استثمر أيضاً صلاحياته هذه فى زمن الجمهورية لتدعيم مستقبل ولده ، حتى تمكن من إسناد أول منصب قيادى له فى مجال عمله . ولقد كان هو يبارك دائما ما يفعله والده ، لإدراكه لمدى أهمية ذلك كوسيلة للارتقاء السريع . فكان يستفسر منه دائماً عن أسماء من لهم مصالح فى عهدته، حتى ينتقى من بينهم الشخصية المناسبة التى يمكن أن يجنى من ورائها دفعة إلى الأعلى , حتى أصبح هذا الارتقاء السريع مدعاة للدهشة والتساؤل بين أقرانه . فقد صعد من وسطهم بسرعة البرق إلى أعلى المناصب ، رغم عدم تمتعه بأية ميزة نادرة أو موهبة فذة . ولإدراكه بكل ما يتردد عنه فإنه ما إن تولى منصب الحاكم ، حتى أرسل فى نفس يوم توليه برسائل سرية يحملها مندوبون يمثلونه شخصياً ، ونبه عليهم بضرورة تسليم تلك

www.alkottob.com

الرسائل لأصحابها بصفة شخصية ، واستردادها مرة أخرى بعد الانتهاء من قراءتها . وكانت هذه الرسائل موجهة إلى كل من كانت لهم يد فى ارتقائه لسلم القيادة والسلطة ، بالإضافة إلى كافة زملائه دون استثناء على مدى تاريخه الوظيفى ، وكافة من تجمعهم به صلة قرابة سواء بالدم أو بالمصاهرة . وكانت الرسالة مختصرة جداً وبدون توقيع وتحتوى على كلمتين فقط هما .... " لسانك .. حياتك " .

ولطالما روجت كتائب إعلامه لأدبه الجم ، واحترامه لمستشاريه ، وتعففه عن التعامل مع كافة المحيطين به بألفاظ جارحة أو خادشة للحياء . ولكن الحقيقة المؤسفة والخطيرة ما لبثت أن وجدت هى الأخرى طريقها للتسرب ولكن بحذر شديد وخوف أشد . فلقد كان يتعامل مع مستشاريه بأسلوب شيطانى لم يتبعه سواه . ولئن كان من سبقوه من الحكام قد أخذتهم الجلالة والعظمة فى بعض تعاملاتهم مع مستشاريهم ، فتطاولوا عليهم بالألفاظ الجارحة والردح والصياح بالصوت الحيانى أمام صغار الموظفين والخدم ، فلأن ذلك كان مرتبطاً فقط بمدى صفاء مزاجهم أو تكدره . ولكنه هو ابتدع سياسة ثابتة للتعامل مع مستشاريه ، تبدأ منذ تعيين المستشار وبالتحديد بعد أدائه لليمين . حيث يُفاجأ المستشار بعد انفراده بالحاكم لتلقى

www.alkottob.com

توجيهاته ، بعدد من الرجال الملثمين يحيطون به ويوسعونه ضرباً وشتماً وتجريساً وتهزيئاً، ثم يأمرونه بالسجود أمام الحاكم والتسبيح بحمده ومجده ، ثم يفاجأ المستشار وهو ساجد بأنهم قد قيدوا حركته تماماً ومزقوا ثيابه ، وأن أحدهم يعتدى عليه جنسياً ، ويظل يصيح ويستنجد بالحاكم ويطلب منه العفو والرحمة ، ولكنهم لا يتركونه إلا بعد أن يغشى عليه أو يتبادلوا جميعاً الاعتداء عليه . وبعد ذلك يجلسونه أمام الحاكم مرة أخرى ، وكأن شيئاً لم يكن ، ويبدأ الحاكم فى إصدار توجيهاته وتكليفاته إليه . فيخبره بأن تشريفه بمنصب المستشارية ليس إلا ليكون عيناً له فى أحد قطاعات الدولة ، وعلى باقى المستشارين الآخرين ، وبالتالى فإن أى إجراء مهما قل شأنه لايمكنه اتخاذه إلا بعد العرض عليه ، كما إن الاستمرار أو الإعفاء من هذا المنصب رهنا بمشيئته هو فقط دون اعتبار لأيه عوامل أخرى ، فرضاه هو الباب السحرى لدخول عالم السلطة وعدم مغادرته . وفى نهاية المقابلة يفاجئه بأنه منذئذ سيناديه فى مقابلاتهما المنفردة باسم زوجته ، فإن لم يكن متزوجاً فباسم أمه . وإن كان منصب المستشارية لامرأة ، فإنه يناديها باسم زوجها أو أبيها .

www.alkottob.com

ولأن تفكيره الشيطانى لم يتوان أبداً عن ابتكار كل ماهو فاجر ومريع ، فإنه أفرد أسلوباً خاصاً للتعامل مع الشواذ من مستشاريه . ولعلها من النوادر التى يتناقلها المقربون والمحيطون ، وبطلها هو المستشار الفاجر الذى فوجىء يوم تعيينه وبعد أدائه لليمين بنفس الطقوس المهينة ، ثم إذا بهم يقيدونه ويطلقون عليه حيواناً دربوه خصيصاً على ممارسة الجنس مع الجن ، وعندما رأى ذلك المستشار مدى ضخامة وطول عضو ذلك الحيوان ، ظل يستنجد ويستغيث بالحاكم . ولكن ظل الحيوان يدك فيه حتى أغشى عليه . ولعل هذه الواقعة كانت من أسعد لحظات الحاكم ، فما كان ليحقق لهذا المستشار مراده بأن يطلق عليه رجاله .

أما السيدات فإذا أتيح لإحداهن أن تتولى منصب المستشارية، وهو أمر نادر الحدوث ، فإنه أعد لذلك ترتيبات خاصة ، تبدأ أيضاً بالضرب والتجريس والتسبيح بحمده ، ثم يحاصرها ثلاثة من رجاله الملثمين ، ليأتونها هم الثلاثة فى نفس الوقت ، من الأمام والخلف وفى الفم ، وما أن ينتهوا حتى يتبدلوا بثلاثة آخرين ، ولا يتركونها إلا إذا أغشى عليها ، أو بدأ يتفصد منها الدم .

ونظراً لأن عقله الشيطانى كان يدرك بأن هذه الطقوس المهينة يمكن أن تتسرب إلى العامة من خلال ألسنة القائمين عليها ،

www.alkottob.com

فإنه كلف كتائب إعلامه بأن تروج لشائعات مضادة ، تتهم مرددى وقائع تلك الطقوس بأنهم عملاء لبعض الطامعين فى منصب المستشارية ، وأنهم يثيرون هذه الشائعات لكى يعزف المؤهلون لهذا المنصب عنه ، فيخلو الطريق بذلك لهؤلاء الطامعين . ولعله كان راضياً تماماً عن هذا الأسلوب فى التعامل مع مستشاريه . فقد ضمن بذلك ولاءهم التام له ، وتعاملهم معه كإله يمنع ويمنح ، ويعذب ويرحم ، كما أنه زرع الشك بينهم ، فضمن عدم اتفاقهم عليه .

ولقد كانت حياته الزوجية مثار تساؤل وفضول المحيطين به والمقربين إليه . لأن زوجته لم تكن تتميز بأى قدر من الجمال ، فضلاً عن أن الشحوب والضعف كانتا هما الصفتان المميزتان لها . ولذلك كانوا ينتظرون منه دائماً أن يطلقها ، أو حتى يقصيها عن الحياة العامة حتى ينساها الشعب . ولكنه لم يفعل ذاك ولا ذلك ، فقد تعوَّد منذ زمن أن يستثمر كافة نقاط ضعفه ويحولها إلى نقاط للقوة . فلم يطلقها ويتزوج بامرأة جميلة تليق بمكانته ، لأنه كان يخشى من أن تخلب أية امرأة جميلة عقول المحيطين به ، وعقول أفراد الشعب ، وتصبح بمرور الوقت مركزاً للنفوذ ينتقص من نفوذه الذى لا يشاركه فيه أحد . كما أنه لم يقصرها عن الحياة العامة ، حتى يظل شحوبها رمزاً لوفائه وإخلاصه

www.alkottob.com

وشدة تمسكه برفيقة عمره ، رغم كافة المغريات لمن فى مثل هيلمانه ومكانته .

أيضاً .. ترددت أقوال مصدرها الوصيفات المحيطات بزوجته وجهاز أمنها الخاص ، مفادها بأنها هى الأخرى لم تعشقه يوماً ، فهى لم تشعر معه يوما ما بأى إشباع جنسى ، لأنه كان دائماً بعيداً عن المنزل بحكم مسئوليات عمله ، كما إن رغبته كانت سريعة الخمود ، فما كانت رغبتها لتبدأ فى الاشتعال إلا وتكون رغبته هو قد انطفأت ، ولقد كان هذا يدفعها للتبرم فيما بينها وبين نفسها فى أوائل حياتهما الزوجية ، ولكن ذكاءها الفطرى كان يجعلها تتغاضى عن إظهار ذلك له ، لتسليمها بأن تواضع جمالها لن يتيح لها الارتباط برجل آخر بمثل هذا المنصب والمستقبل اللامع . وبمرور الوقت بدأت شهوتها تذوى و تأفل ، وبالـــذات بعد توليه منصب الحاكم . ولقد كانت تفسر ذلك بان حياة الحكم والنفوذ والقوة صارت تمنحها لذة لا تدانيها لذة أخرى . ولكنها لم تكن تعلم بأنه ما إن تولى الحكم ، حتى أمر جهاز أمنه الخاص بوضع مثبطات للشهوة فى طعامها وشرابها وعقاقيرها الطبية ، لأنه لم يعد يطيق الاقتراب منها ، فشحوبها أورثه الزهد فيها ، كما أنه بأفكاره الشيطانية كان يعلم بما يمكن أن تفعله صولة السلطة بالنفوس ، مما يدفع المرأة

www.alkottob.com

لاقتراف أي شيء ، ما دامت تأمر فَتُطاع . وهو لم يكن على استعداد أبداً للظهور أمام جهاز أمنه الخاص بمظهر المغفل الذى تخونه زوجته مع وصيفة شاذة أو خادم قذر .

ولقد بدأ بعدما تأكد من تثبيته لدعائم حكمه ودوائر نفوذه ، فى الالتفات إلى رغباته الجسدية ليثبت دعائمها هى الأخرى . ولعل رغبته راودته كثيراً فى أن يقرب إليه أحد أجمل الجميلات ليتخذها محظية ، فيأتيها كلما استبد به الشوق . ولكنه لم يستسلم لهذا الخاطر الساذج ، فسرعان ما بدأت أفكاره الشيطانية فى التوارد ، حتى انتهى إلى ضرورة عدم اقتصار رغبته على امرأة واحدة فقط ، ففى هذا خطورة ما بعدها خطورة على أمنه وأسراره وعلى استقرار حكمه . ثم ما الفارق بينه وأى صعلوك إذا اقتصرت رغبته على امرأة واحدة بعينها ، حتى وإن كانت أجمل الجميلات . كما إنه من داخله كان يحتقر كافة النساء ، ولا يرى إلا إنهن فروج نتنة لا يأتيها الرجال إلا تحت وطأة تلك الرغبة الجامحة .

لذلك أسفرت أفكاره الشيطانية عن نظام فريد يضمن له عدم التعلق بامرأة بعينها ، كما يضمن له عدم تعرف أى من تلك النساء عليه ، حيث كون جهازاً خاصاً ألحقه بجهاز أمنه الخاص ، كانت مهمته الوحيدة هى إشباع رغباته الجسدية . ويتم ذلك

www.alkottob.com

برصد أجمل الجميلات بصفة دورية، وعرض صورهن عليه حتى يختار منهن أربعاً فقط. فيتم اختطافهن بمعرفة جهاز أمنه الخاص والكشف عليهن للتأكد من خلوهن من الأمراض ، وفى مخدعه الخاص يتم تقييدهن ـ وتعصيب عيونهن ـ على الطبلية الدوارة التى ابتدعها هو لممارسة الجنس مع أربع من النساء فى نفس الوقت .

وهى طبلية أفقية تدور حول محور رأسى ، ويتم وضع أربع من النساء عليها بحيث تتلاقى رؤوسهن فى مركزها ، ثم ترفع سيقانهن بحيث تبرز فروجهن عند طرف الطبلية ، ويقف هو بجوار تلك الطبلية ويدخل فى إحداهن ويخرج ، ثم تدور الطبلية فيدخل فى التالية ويخرج ، وهكذا يظل يأتى الأربع تباعاً حتى تنطفىء رغبته ، والتى كان يطيل فى أمدها باستخدام عقاقير نادرة وباهظة الثمن ، استوردها خصيصاً من بلدان الأطراف المتقدمة .

ولقد استمر على هذا المنوال زمناً ، ولكن لإفراطه فى استخدام تلك العقاقير فسرعان ما أصابته بآثار عكسية أضعفت بمرور الوقت من قدرته الجنسية . وقد أكد له الأطباء بأنه لا علاج لحالته إلا بالتدخل الجراحى لتركيب أجهزة تعويضية تمكنه من استعادة قدراته ، ولما كان هذا النوع من العمليات لا يجرى بنجاح تام إلا فى أحد بلدان الأطراف المتقدمة. فإنه استبعد ذلك

www.alkottob.com

تماماً ، لعدم ثقته فى أولئك الأجانب ، وخشيته من تتبع أجهزة أمنهم له وابتزازه سياسياً لقاء عدم نشر تلك الفضيحة ، بالإضافة إلى علمه باستقلال أجهزة إعلامهم عن السلطة ، وإمكانية توصلها للخبر ونشره فى أقطار العالم ، فينفضح أمره فى كافة البلدان ، ويزول حكمه من أجل إصلاح رجولته .

لهذا سرعان ما ابتدع أساليب جديدة اتسمت بالانحراف والشذوذ والجنون الجنسى . فأصدر الأوامر لجهاز رغباته الجسدية برصد الشواذ والشاذات واختطاف من يقع عليهم اختياره ، وفى مخدعه الخاص يتم إجبارهم على ممارسة الشذوذ فى حضوره مرتدياً قناعاً يخفى شخصيته . وكان يجد فى متابعته لتلك الممارسات الشاذة لذة طاغية ، لا تتفوق عليها إلا لذة مشاهدته لأب يأتى ابنته او ابن يأتى أمه أو شقيق يأتى شقيقته ، فكلف جهاز رغباته الجسديه باختطاف من يحدده من المعارضين للحكم ، ثم اختطاف أحد أفراد أسرته ، وفى مخدعه يتم تلثيمهما وتكميمهما فلا يتعرف أحدهما على الآخر أثناء ممارستهما للجنس معاً . فيأتى الوالد ابنته او ابنه ، ويأتى المرأة ابنها أو والدها ، بينما يجلس هو بأحد أركان المخدع ملثماً يراقب ما يحدث بلذة طاغية .

- ولعل هذا آخر ما وصلنى من أخبار جنونه الجنسى .. هكذا قالت لى نورجان ، التى لاحظت علامات الذهول والذعر ترتسم على

www.alkottob.com

وجهى ، فحاولت التخفيف من روعى بأن تغير مجرى الحديث .

ولكننى بادرتها بقولى :

إن من يفعل كل ذلك لايمكن إلا أن يكون شيطاناً رجيماً .

فأضافت:

بل هو عميد الشياطين فى هذا البلد .

ولكننى لم أستطع إخفاء دهشتى من وقوعها على كافة تلك المعلومات الدقيقة عن شيطان يحرص على مزاولة كل شروره خلف الأسوار والمتاريس . فصارحتنى بأن كل هذا وصل إليها من خلال صديقة لها على علاقة بأحد أفراد جهاز أمنه الخاص .

ولقد شردتُ قليلاً ، فاستوضحتنى عن سبب شرودى ، فصارحتها بأننى كنت أنتظر منها أن تحكى لى عن كيفية إدارته للحكم فى البلاد ، ولكن يبدو أن غرامها بأخبار الفضائح جعل معظم حديثها يقتصر على حياته الجنسية ، فاشتعلت غضباً وصاحت فى وجهى :

وهل تظن بعد كل ما سمعته منى عن شيطان كهذا ، أنه سيدير حكم البلاد بالعدل والرحمة ، لقد حدثتك عما لا يمكنك الإحاطة به مهما مكثت فى هذه البقاع ، أما أمر إدارته للبلاد ، فستعاينه بنفسك من تبصرك فى الوقائع والأحوال .

www.alkottob.com

وشردتُ مرة أخرى .. ولكن بعيداً ، بعيداً داخل أعماق ذاكرتى الفارغة ، لعلى أجد بداخلها ما ينقذنى مما سمعته من فظائع وأهوال ، ولكنها كانت مظلمة باردة ، كأنما اعتادت منذ أمد على حفظ المظالم والآلام و ونسيان الأمانى والأحلام .

* * * *

الأحوال

يسرى فى البلاد سخط مكتوم ، وغضب مكبوت ، يزلزلان جبال الصبر الشاهقة التى تحصن حياة العباد بفيض من قوة الاحتمال ونعمة النسيان . وتتلاقى العيون منكسرة فى تساؤل بلا كلام : إلى متى هذا الذل وذاك الهوان ؟ وتضطرم الصدور بغل مدفون قيامته آتية لا ريب فيها . وكالوباء - الذى تمكن من جسد عليل فلا تزيده انتفاضات الاحتضار إلا شراهة - انتشر رجال الأمن فى ثنايا البقاع وأرجائها ، لتنفيذ أوامر الحاكم برصد الأنفاس والهمسات والخلجات ، تأديباً لأولئك السناكيح الذين لم تزدهم حكمته إلا خساراً ، فليذقهم إذن نهار طيشه وليل بطشه .

ولقد عاينت كل ما أدى لذلك بنفسى . لم يسرده على أحد ، ولم تروه لى نورجان ، ففى قلب أحداث ذلك اليوم كنت قائماً ،

www.alkottob.com

ووجدتنى يومها وسط العباد ، يذلنى ذلهم ، ويبلغنى ضعفهم ، ويطمئننى خوفهم وذعرهم .

كانت البلد تحتفل فى هذا اليوم المبارك بمناسبة دينية سنوية . وكان لهذه المناسبة جلال وسحر يلقيان بظلالهما على البقاع والنفوس . وعلمت من نورجان بأن الحاكم يحتفل بهذه المناسبة فى أكبر دار للعبادة بالبلد ، حيث يؤم العباد فى الصلاة ، ثم يخطب فيهم خطبة تصفها كتائب إعلامه بالتاريخية . واستبد بى الفضول لرؤية ذلك الشيطان جهرة ، والاستماع إلى بيانه ، ومعاينة جاهه وهيلمانه . لكن شدة الزحام فى يوم الاحتفال أبعدت مجلسى إلى الصفوف الخلفية ، فى أقصى ساحة الصلاة الفخمة المتسعة ، ولالتفاف حراسه حوله أثناء وصوله ، لم أستطع أبداً مطالعته . وفور قدومه أذن المؤذن ، فتقدم الحاكم الصفوف ليؤم الصلاة . كان صوته فى التلاوة بارداً جافاً ، خالياً من أى أثر للتقوى ، كآلة صماء لا تعى ما ترتدده من أقدس الأذكار . ولكنه كان يسجد طويلاً كأنما كان يلهج ويتهدج بالدعاء .... لكن نورجان أفهمتنى فيما بعد إنه كان يتصنع ذلك عملاً بنصيحة خلصائه ، الذين أوصوه بترقيق صوته أثناء التلاوة وإطالته للسجود كمظهر للورع والخشوع . فصام فيهم حينئذ معلناً عدم تصديقه لقول واحد من هذه الأذكار المقدسة ، فما هى

www.alkottob.com

إلا أساطير الأولين ، وأنه على مضض سيكتفى فقط بإطالة السجود .....وفى نهاية الركعة الأخيرة سلم يميناً ، ثم استدار ليسلم يساراً ، وإذا بصوته يزأر صائحاً :

سرقوا منى صولجانى ، سرقوا منى صولجانى .

وتكهرب الجو ، وانتشر رجال الأمن كالبرق على كافة المداخل والفتحات والأبواب ، وفى لحظات حاصروا دار العبادة . وارتفع صوته يأمر جمع المصلين بالسجود ، فاندفع رجال الأمن يدفعون العباد للسجود امتثالا لأوامره ، واعتلى هو المنبر ، وصاح هائجاً :

أيها السناكيم ، أصلى بكم فإذا بكم تسرقوننى وأنا الجدير بأن تصلوا لى . تعيشون فى ظل رحمتى ، وأتقدمكم للصلاة لغيرى فتسرقوننى . فلتسجدوا الآن لى ، ولتذوقوا عذابى ، ولتودعوا منذ الآن رحمتى ، فليس أمامكم بعد اليوم إلا الشقاء المقيم . أيها السناكيم الأجلاف ، فليظهر صولجانى المنحوت من الصخور النارية ، والذى يخطف وهجه الأبصار . وليتقدم من سولت له نفسه القذرة سرقة حاكمه ، لكى أحرقه بنيران غضبى .

وأعترى الجمع الغفير الساجد نحيب ونشيج ورعشة ، ورفرفت ظلال الموت على النفوس ، وإذا به يتابع صائحاً :

لم يتقدم منكم أحد ، إذن فسأخرجه بنفسى ، وإن عذابى لشديد .

www.alkottob.com

وأمر رجاله باقتياد الحاضرين رجلاً رجلاً إليه ، وضربه وتقريعه حتى يتفصد منه الدم، وتجريده من ملابسه بحثاً عن الصولجان ، ثم طرده إلى الطريق عارياً يحمل أسماله ، بينما تلاحقه اللكمات والركلات.

وفوجىء المارة العابرون بالمصلين يندفعون فارين وهم عراة إلى عرض الطريق ، بينما يتعثرون فى أسمالهم ، وتشيعهم اللعنات والشتائم . فتجمع العباد ، واحتشد العشرات منهم ثم المئات فالآلاف ، حتى سدت كافة الطرق والمداخل المؤدية إلى دار العبادة . وكان كلما خرج أحد الرجال عارياً، تلقفه الواقفون لستر عريه عن أعين الجموع .

ولقد استمر الحاكم قائماً على رجاله داخل دار العبادة ، حتى تم تفتيش كافة العباد ، ولما لم يظهر للصولجان من أثر ، استدار إلى مستشاريه ورجال أمنه ونظراته نحوهم يملؤها الشك ، وأمرهم جميعاً بالسجود ، وقام بتفتيشهم بنفسه ، لكنه لم يعثر على شىء . فأمر الحراس بتفتيش دار العبادة وجس أرضياتها وحوائطها واقتحام حجراتها ومخازنها . وبعد فترة عادوا إليه والخيبة تسبق خطواتهم ، بعدما حولوا الدار إلى خرابة نبشت أرضياتها وتقشرت حوائطها ، وبدت كأنما دارت بداخلها معركة حربية خربت فيها كل ماهو مقدس وجليل .

www.alkottob.com

وانفجر غضبه وتعاظم هياجه ، وظل يسب فى رجاله ومستشاريه حتى بح صوته وانقلبت سحنته ، ثم أمرهم بإعداد موكبه للمغادرة ، لكنهم لم يتحركوا ، فبهت من عدم امتثالهم لأمره ، فصام فيهم مرة أخرى ، فأشاروا إلى الخارج ، فتقدم ناظراً وإذا بالجموع الحاشدة قد غطت الميدان الشاسع ، وجحافل الأمن تقف أمامها عاجزة . فالتفت إلى رجاله والقلق يعلو ملامحه وتمتم:

وكيف إذن الخروج .. كيف إذن الخروج ؟

وأخذ يروح جيئة وذهاباً وخطواته يعثّرها الذهول . وإذا فجأة بصوت هادر ينطلق من كافة الأنحاء والأركان ، ويتجلجل راعداً :

.... هى كانت عزبة أبوك ....

واستمر صدى الصوت الهادر يتردد ، فسرت فى الجموع رهبة ، وأخذت الرؤوس تتلفت والعيون تدور بحثاً عن مصدر هذا الصوت . ثم بدأت تندلع فى الحشود فوضى واضطراب ، فقد تملك العباد ذعر وهلع لظنهم بأن هذه إشارة الهجوم لجحافل الأمن المرابطة حولهم ، فانطلقوا فى كافة الأنحاء فارين ، وساد الهرج والمرج الميدان الكبير ، وأخذ العباد يدوس بعضهم البعض طلباً للنجاة .

www.alkottob.com

ولقد تسمر الحاكم فى مكانه عند سماعه للصوت الهادر ، ثم اندفع يهذى :

ما هذا .. ما هذا .

ثم أخذ يصيح فى هلع :

أخرجونى من هنا .. أخرجونى من هنا .

ثم التفت إلى رجاله مستنجداً :

أيكم ينقلنى لقصرى .

فقال له عفريتٌ من رجاله :

أنا أنقلك إليه قبل أن يصلوا إليك .

وقال له الذى عنده علم الشياطين :

أنا أنقلك إليه قبل أن يرتد إليك طرفك .. فلما وجد نفسه بقصره ، ارتعد غاضباً وصاح زاعقاً :

إننى على كل شىء قدير .

* * * *

ـ" هى كانت عزبة أبوك" .

www.alkottob.com

هكذا رددتُ لنورجان الصياح الهادر الذى سمعته كباقى العباد ، بينما هى تضمد لى جراحى . فلقد نالنى ما نال الجميع ، وخرجت فاراً من ساحة الصلاة عارياً أتخبط فى ذعرى ودمائى ، وتلقفتنى الجموع لتستر عورتى ، وإذا بالصوت الهادر يتجلجل .

ولقد أطرقت نورجان ثم قالت :

ولكن أين اختفى الصولجان ؟ وما هذا الصوت ومن أين انطلق ؟

فأجبتها :

لقد انطلق من كل الاتجاهات .

فتساءلت :

ولكن كيف ؟ ومن المقصود بهذا النداء .

فنظرت لها مدهوشا :

تقولين من المقصود بهذا النداء ، إنه الحاكم ولا شك ، إن الصوت كان يخاطبه هو دون جدال ، ولو أدرك العباد هذا من الوهلة الأولى ، ما كانوا فضوا بخوفهم حشدهم الغفير ، الذى ولاشك ملأ قلب هذا الشيطان بالرعب والهلع .

وشردت نورجان لوهلة ثم قالت و كأنها تحدث نفسها :

لكن من الذى يجرؤ على مواجهة شيطان كهذا بمثل هذا النداء ؟

www.alkottob.com

فرددتُ بعدها بقلب واجف :

حقاً .. من الذى يجرؤ على سرقة شيطان كهذا ، ومواجهته بمثل هذا النداء؟ (هى كانت عزبة أبوك) .

* * * *

مستشار الخوف

اعتاد دائماً على أن تختلف نواياه عن أفعاله . وعلى أن يُظهر غير ما يبطن . فهو بحكم تدرجه فى مناصب هذا الجهاز ، يعلم تماماً بأن الفاصل بين الموت والحياة أو بين الشقاء والنعيم ، يتوقف على تقرير ... نعم .. تقرير يكتبه أحد المحيطين ليكشف فيه عن نقطة ضعف واحدة ، أو عن كلمة نقد عارضة. ولذلك فقد درب لسانه على أن يتحدث بغير ما يمليه عليه عقله ، ودرب ملامحه على أن تشى بغير ما يضطرم بداخل نفسه . ولقد أتقن كل ذلك تماماً . فهو بحكم نشأته المنحطة وأصوله الوضيعة ، تعود دائماً على لعبة الأوجه المتعددة . فلقد علمه طموحه الزائد بأن الطريق إلى القمة لا يبدأ من عند السفح ، وإنما بالقفز على القمة مباشرة . ولذلك فإن حقيقته البائسة كانت سفحاً لا ينبغى التطلع إليه أو اطلاع أحد عليه . فهى سره الدفين

www.alkottob.com

وكهفه المحجوب . ولعل قدرته تلك على تناسى الماضى والتعايش فقط مع الحاضر ، قد مكنته من الوصول سريعاً إلى أوساط البارزين . فكان ينقلب ثرياً وسط الأثرياء ، وسيداً وسط الأعيان ، مثقفاً وسط العلماء والمفكرين ، شاذا وسط الشواذ ، سكيراً وسط المخمورين ، حشاشاً وشماماً وسط أصحاب الأنفاس . ولذلك فسرعان ما وصل إلى غايته سريعاً حتى أصبح شيطاناً وسط طائفة الشياطين . ولقد أتقن الشيطنة حتى اختصه الحاكم بمنصب مستشار الأمن .

أيقن منذ البدايه أن الأمن الذى ينشده الحاكم ليس إلا أمنه هو وليس أمن الشعب . لذا وطد عزمه تماماً على امتلاك ناصية ذلك الجبار من خلال هاجس الأمن . فتحت مسمى الأمن يمكنه أن يصول ويجول فى هذا البلد طولاً وعرضاً ، فيتحكم فى العباد ، ويمتلك الرقاب ، وينشر الخوف أو يمنح الأمان . ولكنه لم يكن مثل أولئك الذين سبقوه فى هذا المنصب ومارسوا الشيطنة بسذاجة ، وأخلصوا للحاكم فكان إخلاصهم وبالاً عليهم . بل لقد أيقن منذ اللحظة الأولى بأن هذا الجبار إذا اطمأن غدر . ولذلك كان لابد من إعاشته فى قلق دائم وخوف مزمن لايستطيع منهما فكاكاً . ولكنه كان يدرك بأن هذا القلق لو تحول إلى ذعر أو هلع فإن فيه نهايته . فشرع منذ بداية توليه لهذا المنصب فى إعادة رصد

www.alkottob.com

كافة تنظيمات الجائرين، ومراقبة أحوالها وتحركاتها ، ولكنه لم يكن يبادر بإماطة اللثام عنها ، بل كان على العكس يضطلع فى الخفاء بتمويلها وتسليحها بقدر محسوب . فإذا ما بدأت تظهر على إحداها بعض مظاهر القوة غير المأمونة ، فإنه سرعان ما يدفع ببعض عملائه السريين لإحداث انشقاقٍ داخل هذا التنظيم ، أو تدبير صراعٍ على المناصب القيادية بين أعضائه . فإن صمد التنظيم أمام كل ذلك ، فسرعان ما يدبر لقتل قائده أو خطفه وحبسه لحين الحاجة إليه ، أو إلصاق تهمة مشينة به تنال من عرضه وشرفه . وبذلك يضمن بقاء كافة التنظيمات ، ولكن دون خطورة تهدد أمن الحاكم ، بما يمكن أن يهدد من حظوته لديه .

ولكنه لم يكن يكتفى بذلك . فعقليته الشيطانية كانت مصنعاً لإنتاج وإنشاء التنظيمات الوهمية التى لا وجود لها , والتى يتحين التوقيت المناسب لكى يدفع بأحدها إلى أرض الواقع . فينسب إليه الدسائس والمؤامرات ومحاولات الإطاحه بالحاكم . بل سرعان ما ينشر فى أنحاء البلد منشورات تحمل أفكار هذا التنظيم وتهديداته لرموز الحكم ، ثم يكلف بعض رجاله باغتيال أحد المقربين الذى يضمر له هو شخصياً العداء لعلمه بطمعه فى منصبه ، ثم ينسب أمر اغتياله إلى ذلك التنظيم

www.alkottob.com

الوهمى . وآنذاك يزداد هلع الحاكم فيستدعيه ليصب عليه جام غضبه ، ولكنه سرعان ما يكاشفه بأن كافة الأمور تحت السيطرة، ويرجوه التكرم بمنحه مهلة قصيرة ليقدم له هؤلاء الخونة وهم صاغرون . وخلال هذه المهلة يبدأ فى تكليف رجاله بإلقاء القبض على عدة أشخاص يختارهم بعناية ، ويأمر بتعريضهم لألوان من التعذيب الوحشى ، الذى ترافقه عملية تلقين لأفكار هذا التنظيم ، وتدريب على مجموعة من الاعترافات الكاملة والمتناسقة . وما إن يطمأن إلى اكتمال كافة أركان هذا التنظيم ، حتى يعلن للحاكم عن نجاحه فى إلقاء القبض على كافة أعضائه . وبذلك كان يصطاد هدفين بضربة واحدة . فمن جهة يفوز بالحظوة والمكانة لدى الحاكم ، ومن جهة أخرى يضمن استمرار بقاء تنظيمات الجائرين الحقيقية بتهديداتها التى تذكى نار القلق لدى الحاكم ، فيأمن غدره وتقلبه .

ولكنه اليوم يشعر بأن عقليته الشيطانية قد أصابها الشلل . فقد دهمته مصيبتان فى يوم واحد ، بوغت بهما ، فكأنما ليس له عيون وآذان ترصد حركة الذرة فى هذا البلد . فمن هذا الذى جرؤ على سرقة ذلك الصولجان ؟ ومن ذلك الذى أطلق هذا الصيام الهادر فزلزل الميدان الفسيح ؟ .. حقاً إنه يشعر بالامتنان لذلك الصوت لأنه جنبه مواجهة دامية مع تلك الحشود لتفريقها ، ولكنه فى

www.alkottob.com

الوقت نفسه مطالب أمام الحاكم بمعرفة كنه ذلك الصوت ، وإعادة ذلك الصولجان اللعين . فهل يمارس مهم هذا الأمر أيضاً خدعة التنظيمات الوهمية ؟ ولكن ماذا لو انطلق الصوت بعد ذلك مرة أخرى ، أو ظهر الصولجان ووقع فى يد الحاكم واكتشف الخدعة . ولكن مهلاً .. ماذا لو كان هذا الأمر خدعة من تدبير الحاكم نفسه ، ولكن كيف يمكن معرفة ذلك ؟ إنه لن يهدأ منذ الآن ، سيطلق عيونه وآذانه فى كل شبر . سيراقب كافة المستشارين والمقربين والمنتفعين والشياطين والصالحين والجائرين والسناكيم . سيراقب حتى أخلص رجاله وأصدق أعوانه . فلقد أصبم استمرار انتمائه إلى طائفة الشياطين أمراً مشكوكاً فيه بعد هذه الكارثة . وأصبم منصبه مهدداً بالزوال . وهو لن ينحدر إلى درك السناكيم مرة أخرى ، فحياته لم تصبم لها قيمة إلا وسط الشياطين ، وهو يعلم أنه بذلك قد خسر الآخرة - إذا كان لها وجود كما يدعى السناكيم - ولكنه لن يسمم أبداً بأن يخسر ولو ذرة من هذه الدنيا .

* * * *

المستشار الفاجر

www.alkottob.com

لم يكن شذوذه أمراً مشيناً يشعره بالعار والخزى والهوان . بل كان يفخر بأنه رغم شذوذه ارتقى إلى هذا المنصب السامى ، فى بلد يتعامل مع الشذوذ باعتباره نقيصة وانحطاط توجبان القتل والتشهير . ولقد كان يتشفى فى سره على هذا المجتمع الذى يتشدق بمكارم الأخلاق ، بينما الشذوذ والرذيلة والانحلال تفشوا فى أهله ، ورغم ذلك يصر على دفن رأسه فى رمال الفضيلة ، بينما يرتع باقى جسده فى مستنقعات الفساد . فلقد اطَّلع بحكم شذوذه على حقائق تفوق كل خيال . فعاين بنفسه بل وابتل ظهره بشذوذ الأتقياء والورعين والطاهرين ، والذين يرتدون مسوح الملائكة بينما هم من الشياطين . وسمع بنفسه من كبار السحاقيات عن شذوذ الفاضلات العفيفات الغافلات ، اللاتى تترغرغ عيونهن بدموع الإيمان بينما فروجهن ملوثة بلعاب العاشقات .

ولقد كان يضمر بداخله حقداً دفيناً على أولئك الأسوياء ، الذين لم يكابدوا عناء تمرد النفس على الجسد ، فأشبعوا رغباتهم بكل بساطة ونهم ، ولم يكبتوها تحت أستار من السرية والخفاء والعزلة والاضطهاد . وكان حقده يدفعه إلى التفلسف ، فيعلن وهو يعلم بأنه يغالط ، بأن الشذوذ علامة على تفوق عالم الجان وارتقائه من حيوانية الفطرة إلى نضج الاختيار . وأن الأسوياء

www.alkottob.com

بذلك ليسوا إلا حيوانات عاقلة أفقدها تضخم الفطرة القدرة على تحمل مسئولية الاختيار . فعالم الحيوان لا يعرف الشذوذ لأنه عالم لا يحكمه العقل بل تحكمه الغريزة فينعدم فيه الاختيار . وبذلك فالأسوياء ماهم إلا جان غرائزيين أو حيوانات عاقلة .

ولعل فنه كان أكبر مظهرٍ على شذوذه . وذلك منذ أن بدأ اسمه يتردد فى أروقة الساحات الفنية، وتنتشر لوحاته فى صالات المعارض العالمية . فهو لم يخف غرامه بل وولعه بالعضو الذكرى فى كافة أعماله الفنية . بحيث أصبح عنصراً أساسياً ومميزاً لرؤيته الإبداعية . فهو تارة يصوره سريالياً كبلبل صدام أو كحمامة ترقد على بيضتين . وتارة يصوره تجريدياً كجبل تحضنه السماء أو كشجرة تشق الصخور . أو انطباعياً كمسمار يُدق فى الخشب أو كإبرة تخيط الأقمشة . أو جمالياً كزهرة يقطر منها الندى أو كنحلة تلدغ وتمنح العسل . وكان لا يخجل من التصريح بأن أعضاء الذكورة الواضحة البارزة المعلنة فى انتصاب عن رغبتها المتوهجة ، أكثر روعة وفتنة وجمالاً من أعضاء الأنوثة المخفية المنزوية القابعة فى خمول لا يشى بأى رغبة . ولذلك اختار العباد وتاه دليلهم عندما فوجئوا بالحاكم يعينه فى منصب مستشار الفكر والفنون . وأخذوا يضربون كفاً بكف ويتساءلون : أيحكم أمر فكرنا وفنوننا الشواذ منا ؟ بل

www.alkottob.com

وأخذوا يتهامسون بخوف قائلين : هل لايعلم الحاكم بأمر شذوذه ؟ ولكن كيف وهوالذى يحسب على كافة العباد أنفاسهم وخلجاتهم . ولكن إذا كان يعلم وارتضاه مستشاراً ، فلا شك بأنه هو الآخر ... ولكنهم سرعان ما كانوا يفيقون ولا يكملون . و لكنه كان هو الوحيد الذى يعلم سبب اختياره . حيث قرر له الحاكم يوم تعيينه ، وبعد أن مارس معه رجاله طقوس التعيين المهينة ، بأنه اختاره لشذوذه، لأنه يخشى جداً أولئك المثقفين والمفكرين والمبدعين . فهم يأسرون العباد بصفاء وجرأة أفكارهم وسحر فنونهم . لذا ولاه عليهم لينجذب إليه ويتحلق حوله الشواذ منهم ، فتسود أفكارهم وتزدهر فنونهم . بينما ينأى عنه الأسوياء منهم ، فتذوى أفكارهم وتأفل فنونهم . وبذلك يأمن شرورهم ، لأن الشواذ منهم سيصبحون لقمة سائغة يمكن بسهولة التحريض بانحلالها أمام العباد ، لو سولت لهم أنفسهم معارضة نظام حكمه وإدارته للبلاد . أما الأسوياء منهم فإن انزواءهم سيسحبهم إلى دائرة النسيان ، فتسهل ملاحقة الناشطين منهم دون إثارة تذمر العباد .

ولقد أدرك وقتها بأنه تلميذ صغير فى بلاط ذلك الشيطان العتيد . وأيقن بأنه لا مجال لخداعه أو استغفاله . فالتزم منذ بداية تعيينه بأن يقدم له كشفاً دورياً يحوى أسماء الشواذ من

www.alkottob.com

أهل الفكر والفنون ، أو من يلمح فيهم بخبرته استعداداً كامناً للشذوذ ولكن تنقصهم الجرأة على إطلاق العنان لرغباتهم . وكان بالمقابل يتلقى منه أمراً شفوياً بأسماء من يرغب فى لمعانه منهم ، فيعمل مباشرة على ذيوع أفكارهم ومؤلفاتهم وانتشار فنونهم وإبداعاتهم . وبذلك اكتسب لدى ذلك الجبار الحظوة والمكانة ، ونال الرضا والتقدير .

ولكنه اليوم أدرك بأن كل ذلك فى طريقه إلى الضياع . فلقد كشر ذلك الشيطان عن أنيابه ، وحطم له كافة آماله عندما طرحه أرضا وداس على رأسه ، وقال له هائجاً متوعداً بأن ما من أحد يعلم بالقيمة الأثرية للصولجان سواه ، لأنه بحكم منصبه اطّلع على الوثائق السرية التى تزعم بأن هذا الصولجان وُجد فى الأطلال التاريخية ، التى يدعى الأجداد بأنها كانت منازلاً لإبليس بعد طرده من الجنة . وأنه ما من تفسير إلا أن يكون شذوذه قد غلب حذره ، فانسرب منه السر وهو منبطح على بطنه وفوق ظهره أحد شواذ الجائرين . ولقد بكى ونهنه تحت قدمى الحاكم ، وأقسم بعزته وجلاله وجبروته وهيلمانه بأنه لم ينبس بهذا السر ولم يردده حتى لنفسه فى منامه أو صحوه . ولكن كل هذا لم يشفع له عنده ، وصام فيه زاعقاً بأن عليه أن يراجع قائمة خارقيه

www.alkottob.com

وناكحيه حتى يصل إلى من استغفله منهم ، وإلا فإن عذابه لشديد .

ولقد أذهلته المفاجأة . فهل يصبح شذوذه الذى كان دائما مصدراً لقوته وانتصاره ، سبباً فى نهايته وذله . إنه لا ينسى أبداً كيف استثمر دائما وبكل نجاح رقاعته وشذوذه ، حتى إنه لم يتردد فى استخدامهما للإيقاع بزوج أمه ، فقد ظل يلاحقه بنظراته الناعسة وجسده المتلوى المتأود ، حتى انخدل الرجل وانفرد به ذات يوم وناله ، ومن يومها زهد الرجل فى أمه وأصبح لايقربها حتى طلقها ، وتحقق له هو مراده بأن يستأثر وحده بعطفها ورعايتها دون شريك . فهل حقاً خانه لسانه وهو فى أوج رغبته فصرح بما لاينبغى التصريح به ؟ إنه يعلم بأنه يفقد عقله ساعتها ، ويهذى بأى شيء وكل شيء ، ولكنه غالبا ما يكون كلاماً غير مفهوم . فهل خرج السر منه دون أن يشعر ؟ إنه يقسم بأنه سيسدها لو كانت سبباً فى مهانته وذله وعودته مدحوراً إلى بؤس وشقاء السناكيم . سيشحذ ذاكرته ليتذكر عشاقه واحداً واحداً رغم كثرتهم ، ولن ينجو من بطشه أحدٌ إلا بعد أن يصل إلى ذلك الخائن منهم . فهو لن يطيب له العيش أبداً أبداً ، مطروداً من جاه وسلطان الشياطين . فالشيطنة هى ماله وبنوه ولذته ومجونه ، ولن يرضى عنها بديلاً .

www.alkottob.com

* * * *

الأحوال

اجتمع الحاكم بمجلس المستشارين . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يدعو فيها المجلس كله للاجتماع تحت رئاسته . فقد كانت سياسته ترى دائماً فى اجتماع المستشارين معاً بصفة دورية أمراً له خطورته الكبرى . لأن هذا يسمح بمد جسور المودة بينهم ، ويتيح إمكانية التنسيق فيما بينهم ، مما يؤدى بمرور الوقت إلى اعتدادهم بقوة تجمعهم وثقل مراكزهم فى مواجهة نفوذه وسلطانه .ولذلك كان دائماً يجتمع بهم فرادى ، ولا يسمح لهم أبداً بالالتقاء ببعضهم البعض ، ويوافيه جهاز أمنه بتقارير دورية توضح مدى الالتزام بهذا الأمر .

ولقد أدرك المستشارون بأن الأمر جلل . وأن الأجواء تحمل نذير غضب وثورة عارمة سيصبها هذا الشيطان فوق رؤوسهم جميعاً دفعة واحدة ، ولذلك دعاهم مجتمعين . ولعل ضيق الوقت لم يتح لهم تخيل ما قد دُبر لهم . فما إن دخلوا قاعة الاجتماعات الفسيحة ، والتى سمعوا عنها فقط بينما لم تتح لهم مشاهدتها ، حتى فوجئوا بخلوها تماماً من أى أثاث أو تجهيزات ، وسرعان ما

www.alkottob.com

أغلقت الابواب خلفهم، وانشقت الحوائط عن جيش من الرجال الملثمين والمدججين بالهراوات والعصى ، وانهال عليهم الضرب من كل جانب ، حتى صار الرجال يصوتون من الرعب كالنساء ، بينما النساء يجأرن من الألم كالرجال. ثم ظهر الحاكم فى القاعة التى تحولت إلى قطعة من الجحيم ورفع ذراعه آمراً رجاله بالتوقف ، وأخذ يتفقد مستشاريه الذين تغطت بهم أرض القاعة بينما يبصق عليهم واحداً بعد الآخر حتى انتهى . ثم ارتفع صياحه وسط أصوات النحيب والنشيج مجلجلاً :

أيها الأنجاس العفنون ، لقد أسكرتكم خمر نعمتى ، فتركتم البلاد للعباد يعيثون فيها فساداً ، وما هى إلا أيام حتى أجد السناكيم اقتحموا علىّ قصرى ونهبوا أموالى وقوضوا حكمى ، وأعدمونى شنقاً وسط الميدان الفسيح . فماذا أنتم فاعلون ؟ إننى إلهكم الأعلى ، وإن زال ملكى زالت مناصبكم وأموالكم ونساؤكم وأبناؤكم . فماذا أنتم فاعلون ؟ أجيبونى وإلا أفرغت عليكم جام حنقى فلا تخرجون من هنا إلا أشلاء ممزقة .

وأمر رجاله بأن يحملوا إليه واحداً بعد الآخر منهم ، ويلقونه تحت قدميه . فحملوا إليه مستشار البناء والتشييد ، فصام فيه غاضباً :

www.alkottob.com

ماذا فعلت بمنصبك ياشيخ منسر البنائين ؟ هل وليتك لتسرق وتنهب فقط ، بينما تغفل عن تدعيم حكمى وسلطانى . أجبنى وإلا قتلتك فى الحال .

فأخذ الرجل يسترحمه ويستعطفه وهو يضع يديه فوق رأسه اتقاء لضربات متوقعة ، وأجاب مرعوباً :

وعزتك وجلالك ما قصرت ولا فرطت . لقد نفذت توجيهاتك وأتممت تكليفاتك . ورجالى يخرجون كل ليلة تحت جنح الليل ليحفروا المطبات فى الطرق الرئيسية ليتعثر فيها العباد ولتتصادم من جرائها وسائل المواصلات ، وإحصاءات الحوادث فى ازدياد دائم ، وتوضح ذهول العباد من هول المصائب والكوارث التى تحل عليهم فتشغلهم عن أمور وشئون الحكم والدولة . كما أننى لا أترك طريقاً إلا وأمرت بحفره ونقبه كل فترة بحجة إجراء بعض الإصلاحات ، وذلك حتى تتعطل حركة المواصلات وتتعطل مصالح العباد ، ويفر الوقت منهم فلا يجدوا فيه لحظة واحدة من فراغ تدعوهم لإعمال الفكر والتأمل . ولقد أشرفت بنفسى على استيراد مواد البناء الفاسدة ، وإحصاءات المبانى المنهارة والمتساقطة فى ارتفاع مستمر ، فيموت تحت أنقاضها من كُتب عليه الموت ، أما من ينجو فإنه يحيا ما بقى له من حياته بنصف عقل لا يعينه على النقد أو الشجب . كما أن قوانين الإسكان

www.alkottob.com

الاستثنائية التى ورثناها من عهود سابقة ، قد أشعلت أسعار المساكن ، وأصبح الحصول على مأوى يحتاج إلى ثروة ، فصار العباد يهاجرون إلى البلدان الغنيه المجاورة ، فيكدحون نصف أعمارهم حتى يدخروا قيمة المأوى ، ولايعودون إلا بعد أن يكونوا قد فقدوا شبابهم وحماسهم ، فيعيشون كما قدرنا لهم .

وما فعلت كل ذلك عن أمرى ، إن هى إلا توجيهاتك و تكليفاتك قد شرفتنى بتنفيذها ، فما قصرت ولا تهاونت . وإن كنت أفرطت فى السرقة والنهب فهذا اجتهادى لإتقان دورى ، و أسألك غفرانك إذا أخطأت

... ثم أمر رجاله بأن يحملوا له مستشار الصحة . فتلا عليه الرجل دوره فى نشر الأمراض الوبائية فى مدن ومناطق يتم اختيارها بدقة طبقاً لخطط وبرامج موسمية . ودوره فى الإشراف على تصنيع الأدوية والعقاقير عديمة الفاعلية الطبية ، والغنية بالآثار الجانبية . بالإضافة إلى تحويله للمؤسسات العلاجية الحكومية إلى أماكن لتعذيب المرضى وإهانتهم والتنكيل بهم ، فيموتون كمداً إن لم تقض عليهم أمراضهم . وبذلك تنهار صحة العباد وتمضى حياتهم فى ذهول بينما يفترس المرض أجسادهم ، فيأمن الحكم بذلك شرورهم ، وما قد تزرعه الصحة فى نفوسهم من رغبة فى التجبر والتمرد على أسيادهم .

www.alkottob.com

ولقد ظل رجاله يلقون تحت قدميه واحداً بعد الآخر من المستشارين . فاستمع إلى مستشار التموين ومستشار العمل ومستشار العلاقات الأجنبية ومستشار الطاقة ومستشار الخزانة ومستشار الدفاع ومستشارة الشئون الإنسانية ومستشارة العلوم ومستشار العدل . فأفصح كل واحد منهم عن دوره فى التنكيل بالعباد ، واستغفالهم ونهب أموالهم ، وتوريطهم فى صراعات مزمنة مع بعضهم البعض تلهيهم عن أمور الحكم والدولة . وما إن انتهوا جميعاً حتى صاح فيهم :

إذا كان الإخلاص ديدنكم جميعاً فى أدائكم لأدواركم ، فما تفسيركم لما حدث ؟ أين ذهب صولجانى ؟ وماسر هذا الصوت اللعين ؟ لابد أن فيكم خائناً ، ولن أهدأ حتى أعرفه . ومنذ الآن عليكم أن تعتبروا البلد فى حالة حرب ، وأمامكم مهلة لتستعيدوا فيها الصولجان وتكشفوا لى سر هذا الصوت . وإلا فليس لكم عندى إلا جزاء الخيانة ، ومصادرة أموالكم وأملاككم ، وسبى نسائكم وقتل أولادكم ، والتعذيب ثم التعذيب ثم التعذيب .. حتى الموت .

* * * *

ترددت أبناء اجتماع الحاكم بمستشاريه فى أرجاء البلد . فلقد أمر كتائب إعلامه بترويج الشائعات حول هذا الاجتماع لإثارة

www.alkottob.com

الذعر والفزع بين العباد ، فيتقدم منهم من لديه معلومة لتقديمها طواعية إلى أجهزة الأمن ، قبل أن تصل هى إليه فتستخرجها منه تحت وطأة التنكيل والتعذيب .

ولقد عم الفزع بالفعل كافة البقاع ، فالتزم الكثير من العباد منازلهم ، وأهملوا أعمالهم وحوطوا على أسرهم اتقاء لما لاتحمد عقباه . ولقد نصحتنى نورجان بأن ألزم مقرى ولا أغادره ريثما تهدأ الأمور، وينجلى هذا الغموض . ولكننى منذ أن اكتويت بعار الذل والمهانة وتلقفتنى الجماهير عارياً أتعثر فى ضعفى وهوانى بذلك الميدان الفسيح ، وجدتنى أشعر بأننى واحد من هؤلاء العباد ، تسعدنى أفراحهم وترهقنى أحزانهم ، ولذلك تعاظمت بداخلى الرغبة فى أن أقترب منهم أكثر وأكثر ، لأستكشف أعماق أحوالهم وشئونهم ، فدور المشاهد العابر السائح لم يعد يكفينى ، ومشاعر الغريب اللامبالى لم تعد ترضينى . ولذلك عزمت على الخوض فى لب هذا البلد ، لأرسم له صورة حقيقية بمسار خطواتى وتعدد محاوراتى ودقة مشاهداتى . ولقد غمرنى شعور فياض بالرضا بعد توصلى لهذا القرار ، لأننى أيقنت أن ذلك سيضفى على رحلتى معنى ومغزى ، لم يدورا بخلدى عندما انتويت الانتقال إلى هذا العالم اللامرئى . فمادمت قبلت المغامرة فينبغى أن أعيشها ، ولكن كمهمة ورسالة وليس كمغامرة . فما

www.alkottob.com

عاينته هنا يبدو لى الآن أكبر بكثير ، من أن أتعامل معه ـ فقط ـ بمنطق المغامرة .

* * * *

الشياطين

لا يجمعهم ميثاق مكتوب أو مبادىء شفوية . ولا يحتويهم تنظيم معلن أو حتى جماعة سرية . ولا تميزهم ملامح متشابهة أو أزياء متماثلة . ولا ينتمون إلى أصول اجتماعية واحدة أو حتى إلى اتجاهات سياسية متقاربة . بل هم وباء مبعثر فى الأنحاء والأرجاء ، ومتغلغل فى الثنايا والأحشاء . وباء لا يؤكد ترابطه إلا سوء القصد وفساد النية ، قسوة القلب وسوداوية العقل ، غياب الضمير وتحجر المشاعر ، انعدام الأخلاق وانحطاط الشخصية . ولذلك فهم ينجذبون إلى بعضهم بغريزتهم الشيطانية . ولا يستطيع غيرهم أن ينفذ إليهم . فسواد صفحتهم يفضح بياض أية نقطة تندس بينهم حتى لو تحولت إلى الرمادية .

ولقد ابتلت بهم البلاد منذ القدم . فمنهم كان الحكام الذين نصبوا أنفسهم آلهة يسبح بحمدهم العباد وتُشيّد لهم المعابد وتقام لهم الصلوات . ومنهم كان الكهنة الذين أضلوا العباد وأشاعوا بينهم الخزعبلات والخرافات ، بينما احتكروا العلوم

www.alkottob.com

وأسرارها لأنفسهم ودفنوها فى صدورهم ، وجندوها فقط لخدمة أمجاد الحكام الآلهة . ومنهم كان العملاء الذين عاونوا الغزاة والمحتلين على مدى التاريخ ، وأكلوا على كل الموائد فمصمصوا العظام وتجرعوا كؤوس الدماء . ولم يرحموا أى شعب أسير . ومنهم الذين زيفوا العقيدة ونخروا بنيانها وعطلوا نماءها ، فحولوا الديانات إلى أحاجى وألغاز وأساطير وروايات ، وأوّلوا الأذكار المقدسة لصالح القياصرة والخلفاء والسلاطين والحكام فأفسدوا الدنيا وضيعوا الدين . وعلى مر العصور استمر ركبهم يسلم الراية السوداء من جيل إلى جيل . ولم يتهاونوا أبداً فى اغتيال كل أصيل وكل جميل . فسيرتهم هى سيرة الحروب والمؤامرات والدسائس . وتاريخهم هو تاريخ الأطماع والاستبداد والمظالم . حتى أصبحوا ـ وباقتدار ـ وكلاء الشر فى هذا العالم بدون منازع وبدون شريك .

ولقد تطورت وسائلهم فى السيطرة على مقدرات العباد بتطور الأزمان والعصور . فمنذ فجر التاريخ حيث كانت جماعات الجن مشتتة فى الأصقاع ، فيما يعرف تاريخيا باسم " عصور الصيد " ، ظهر نشاطهم المروع . ففى حين مارست جماعات الجن الأولى صيد الحيوانات والطيور والكائنات البحرية لتتغذى على لحومها وللاستفادة من جلودها وعظامها ، جنحت طائفة منهم إلى الراحة

www.alkottob.com

والكسل وتفتقت أذهان أفرادها الشيطانية عن فكرة بشعة ، تجنبهم مخاطر ومشاق اصطياد الحيوانات . وكانت هذه الفكرة هى اختطاف الأطفال وتناول لحومهم . وبذلك كانوا الرواد فى ابتداع جريمة أكل لحوم الجن ومص دمائهم .

ودارت عجلة التاريخ ، واستقرت جماعات الجن حول الأنهار وأوديتها ، ومارست الزراعة وتربية الحيوانات والطيور ، وإقامة القرى والنجوع . ولكن برز الشياطين مرة أخرى بأفكارهم الشيطانية ، فاستسهلوا الإغارة على القرى لسرقة محاصيلها وقطعان حيواناتها . ثم تطورت جرائمهم إلى الاستيلاء على الأراضى وتسخير أهلها لزراعتها لهم . وما لبثت أراضيهم أن اتسعت ، فأغاروا على الأراضى المجاورة لخطف أهلها واستعبادهم لزراعة المساحات الشاسعة . وبذلك ابتدعوا نظام الرق والسخرة ، وفتحوا أبواب التاريخ لعصر الإقطاع . فحولوا العالم إلى إقطاعيات متناثرة يسكنها العبيد ويحكمها السادة . ولم يكن السادة إلا الشياطين فى أثوابهم الموشاة اللامعة ، ولم يكن العبيد إلا باقى الجن فى أسمالهم الممزقة الكالحة .

ولقد استمر رغم كل ذلك ركب الحضارة فى التقدم ، مخترقاً قلاع وحصون الشياطين . فبدأ العلم يحل محل الخرافة ، والصناعة تأخذ الأولوية عن الزراعة . وبدت الصناعة للجن بمثابة طوق النجاة من

www.alkottob.com

عبودية الزراعة التى احتكرها الشياطين . فبدأت الصناعة تغزو العالم ، وتسحب العمال من المزارع إلى المصانع . وظهر المفكرون من الصالحين يروجون لأفكارهم حول الحرية والعدالة والمساواة ، والتى كانت بمثابة شرارة لتفجير الثورات فى كثير من أرجاء عالم الجن ، سرعان ما نشأت على أثرها دول وممالك تعلى من قيمة الحرية للأفراد بينما تقيد سلطات الحكام . ولكن بؤرة الصديد العفنة فى جسد العالم ما فتأت تنشر سمومها . فبدأ الشياطين يستثمرون عوائد إقطاعياتهم فى إنشاء المصانع التى تجذب العمال بارتفاع أجورها ، ثم سرعان ما يخفضون الأجور وينحدرون بظروف العمل، حتى تحولت المصانع إلى ظل كئيب لمزارع العبيد . وعندئذ كانت الفرصة سانحة ليتدخل المفكرون من الشياطين لصياغة نظرية مضادة لنظرية الحرية . فبدأوا يروجون لأفكار جديدة حول ملكية الدولة لوسائل الإنتاج والعدالة الاجتماعية وحكم الطبقات العاملة ، وغزت افكارهم عقول طبقات الجن الكادحة ، فاشتعلت الثورات العمالية فى كثير من البلدان ، وظهرت على أثرها دول وجمهوريات تخضع لسلطان الشياطين ، وتصادر الملكيات الخاصة بدلاً من أن ترشد أساليب إدارتها ، وتسحق العباد لخدمة الدولة ، وتضع الحكام فى مصاف الآلهة . وهكذا .. انقسم عالم الجن إلى قسمين أحدهما ترعى فيه الدولة الأفراد وتؤمن لهم حرياتهم ، وآخر يخدم فيه الأفراد الدولة

www.alkottob.com

وتراقب حرياتهم . ولئن أثبتت الأيام فشل القهر كنظام اقتصادى ، فإن القهر كنظام سياسى واجتماعى ما زال قائماً تحت رعاية ملايين من الشياطين .

* * * *

ولقد اكتوى هذا البلد بنيران كل تلك التجارب والعصور . ولكن زادت عليه موجات الاحتلال والغزو ، التى كانت تتلاحق عليه كأمواج البحر . فما إن يضعف الغزاة القابعون حتى يتصدى لهم للقضاء عليهم غزاة جدد يرثون مستعمراتهم . وبذلك ضم هذا البلد شياطين الداخل وشياطين الخارج . فكان مقراً على مدى العصور لكل شيطان رجيم . وكان هذا أوضح ما يكون فى العصور الحديثة ، التى اعترفت فيها دول الأزمان الشمالية المتقدمة بنظرية الحرية ومارستها على مواطنيها ،بينما أرسلت الشياطين من أبنائها إلى دول أزمان الوسط والجنوب المتخلفة ، لكى يمارسوا شيطنتهم هناك ، فتتقى بذلك شرورهم فى الداخل ، بينما تستفيد من عوائد شرورهم فى الخارج .

ولعل ذلك الاجتماع لشياطين البلدان المختلفة والحضارات المتمايزة على هذه الأرض ، جعل لشياطين هذا البلد طابعاً خاصاً

www.alkottob.com

ربما لا يتكرر فى بلد آخر من البلدان المحيطة . ولعل أول من التقط خيوط هذا الطابع الفريد وتعامل معه باقتدار ، ذلك الزعيم الذى يطلق عليه الصالحون " مستشار إبليس ". حيث كان أول زعيم وطنى يحكم هذا البلد بعد موجات الغزو والاحتلال المتلاحقة . ولقد امتلك جاذبية خاصة لخداع الجماهير والضحك على ذقونها من خلال بيع الوهم لها . بينما مارس أشد ألوان التنكيل والتعذيب على مختلف الطوائف والفئات ، ولم ينج من بطشه حتى رفاقه من الشياطين . ورغم ذلك ظلت الجماهير المخدوعة مستغرقة فى عسل سحره ، حتى استيقظوا ذات يوم على نبأ تدمير جيش البلاد واحتلال جزء من أراضيها . ولكنه خرج عليهم بسحر خداعه ، فحوّل الهزيمة العسكرية الكبيرة إلى مجرد عثرة حربية صغيرة ، وأقنعهم بأن الأراضى المحتلة مثلما كانت تيهاً للأعداء قديماً ، سيحولها إلى مقابر لهم فى هذا الزمان . ولعله نجح فى خداع العباد ولكنه فشل فى خداع نفسه ، وسرعان ما مات كمداً مدحوراً بهزيمته ، وخرجت وراءه الجماهير الغفيرة المسحورة تبكى رحيل جلادها .

ولكنه كان رغم رحيله قد نجح فى تأسيس مدرسة سياسية رائدة فى أساليب الخداع السياسى . مدرسة حولت الحرية المعلنة إلى سجون لطوائف المعارضة ، والإعلام المستقل إلى كتائب

www.alkottob.com

للدعاية المغرضة ، والاقتصاد الوطنى إلى زكيبة للأموال السائبة ، والأخلاق الفاضلة إلى شعارات لاتغادر الافتتاح . ولعل الشياطين الوارثين قد وجدوا فى تلك المدرسة نموذجاً فريداً للسياسات الجاهزة ، التى تردد على أسماع العباد ما يريدون ، بينما لا تطبق إلا ما يكرهون . وبذلك تأسس وترسخ حكم وسلطان الشياطين فى هذا البلد .

*****

الأحوال

لم يصدق العباد التفسير الذى روجته كتائب إعلام الحاكم لمصدر الصوت وكنهه وطبيعته . فقد حشدت كتائب الإعلام كافة إمكانياتها ، وحاصرت العباد ليل نهار بتقارير علماء الطبيعة وحلقات الحوار العلمية والتنبؤات الفلكية ، والتى تؤكد جميعها بأن الصوت الهادر نتج عن انفجار أحد الأجرام السماوية البعيدة ، الأمر الذى أدى إلى تولد موجات تصادمية متتابعة انطلقت فى كافة الاتجاهات حتى اصطدمت بعالم الجن . وبالتالى فالصوت ما هو إلا مجموعة ترددات انفجارية متتابعة لا تحمل أى معنى ، ولكن تناغم المساحات الصوتية فى الفراغ أضفى عليها

www.alkottob.com

جرساً موسيقياً علق فى الآذان ، فترجمته بلا إرادية إلى أقرب الرموز الصوتية أو اللغوية المشابهة ... ورغم شدة الحصار الإعلامى ، إلا أن العباد كان يحلو لهم أن يرددوا هذا الصوت فى جلساتهم الخاصة ، أو فيما بينهم وبين أنفسهم .

ولقد حل يوم مناسبة رياضية كبرى يحضرها الحاكم لتوزيع الجوائز والنياشين . ورغم نصح أجهزة الأمن له بعدم الحضور وسط هذا الحشد الغفير من الجماهير ، فى ظل الظروف الراهنة للبلد . إلا إنه أصر على ضرورة الحضور ، وأمام إصراره طلب منه رجال الأمن الاستعانة بقوات إضافية من الجيش لمحاصرة الإستاد الرياضى الضخم لضمان كفاءة عملية التأمين .

وكانت المناسبة تبدأ بمجموعة من العروض الاستعراضية الرياضية التى تقوم بها مجموعات الشباب ، بعدها يتلو الحاكم كلمة للجماهير الحاضرة ، ثم يشرع فى توزيع الجوائز والنياشين على الفرق الرياضية الفائزة .

بدأ الحاكم كلمته بالترحيب بالحاضرين ، ثم عرج إلى المن عليهم بإنجازاته وأمجاده التى لم يشهد البلد لها مثيلا إلا فى ظل عهده وحكمه . وفجأة أثناء خطابه .. انطلق الصوت الهادر مجلجلاً مدمدماً

www.alkottob.com

.. (هى كانت عزبة أبوك) .... وران صمت مذهول على العباد بمجرد انقطاع الصوت . ولكن ما هى إلا لحظات حتى سرت همهمات بين الجموع الحاضرة ، سرعان ما تحولت إلى هتاف جماعى تلقائى يردد كلمات الصوت : هى كانت عزبة أبوك .. هى كانت عزبة أبوك . والتف رجال الأمن حول الحاكم الذى بوغت بعودة الصوت ، وفوجىء بهذا الغضب المدفون فى أعماق الجماهير التى تمردت وتجرأت لترد فى وجهه هذا الهتاف المجنون . وخرجت الجماهير عن عقالها واستمرت فى حماس محموم ترد هتافها وتلوح للمنصة بقبضاتها . وجذب رجال الأمن الحاكم الذى استولى عليه الذهول إلى خارج الإستاد الذى أخذ يتزلزل بفعل الهتافات المستمرة . وما أن شرع موكبه فى التحرك مبتعداً عن المكان حتى أفاق من ذهوله ، فأمر الموكب بالتوقف ، ونزل إلى الساحة الواسعة المحيطة بالإســـتاد ووجه نظرات مكلومة إلى المبنى الضخم الذى كان يرتج مع مقاطع الهتافات المدوية . وفجأة صام زاعقا :

فلتضرب قوات الجيش هؤلاء الســناكيم ، صوبوا عليهم الأسلحة الثقيلة ، اقضوا عليهم جميعاً حتى يتوقف هذا الصوت .

www.alkottob.com

وما هى إلا لحظات حتى اهتزت المنطقه بهدير قصف الأسلحة الثقيلة التى أخذت تقصف الإستاد بلا هوادة وبلا انقطاع ، حتى تحول فى لحظات إلى أنقاض مختلطة بجثث الجماهير الحاشدة .. وسكت الهتاف ، بينما انبعث الغبار يغطى المنطقة وتخترقه ألسنة النيران الكثيفة متأججة ترعى فى أجساد القتلى والمصابين .

وكان هو ما زال واقفاً ينظر إلى الدمار فى غضب مخيف ، بينما تتردد بداخله أصداء الهتاف الذى أسكتته الأسلحة بحناجر القتلى منذ لحظات ، ولم تستطع أن تُسكت ترددده بداخله .

*****

على هامش الأحوال

أعارتنى نورجان كتاباً محظوراً من التداول . كانت سلطات الأمن قد صادرته فور توزيعه منذ عام . إلا أن بعض النسخ القليلة أفلتت من المصادرة وتم بيعها فى سرية بأضعاف ثمنها .

" عبء الدولة ".... كان هذا هو عنوان الكتاب ، الذى كان فى مجمله بحثاً علمياً رصيناً عن فكرة الدولة، ككيان سياسى اقتصادى اجتماعى أخلاقى قانونى . وقد لاحظ الكاتب أن الدولة نشأت كنظام قهرى ، نتج عن قوة وتسلط أحد الأفراد مما أدى إلى التفاف أقرانه من الأقوياء حوله ، واستيلائهم على مناطق واسعة

www.alkottob.com

من الأراضى باستخدام القوة وبسط النفوذ على سكانها الضعفاء . وبذلك نشأت الدولة كنظام يحكم الأقوياء فيه الضعفاء ، وتزداد فيه مواردها بواسطة القتال والاغتصاب . ومع حركة التاريخ تطورت الدولة من النظام القهرى إلى النظام التعاقدى بين الحكومة والشعب ، والذى يلتزم فيه كل طرف بمجموعة من الواجبات لقاء مجموعة من الحقوق . ولذلك كان التطور التاريخى الطبيعى يفرض أن تصبح أقدم الدول هى أكثرها اقتراباً من النظام التعاقدى فى صورته المثالية ، إلا أن المفارقة كانت تتمثل فى أن أقدم الدول هى أسوأها . فقد لاحظ الكاتب أن الدول التى نشأت منذ فجر التاريخ هى التى مازالت حتى الآن أشد الدول قه رية ودموية وقمعية . لذا استنتج أن هذا يرجع إما إلى أسباب تاريخية خارجية تتمثل فى وقوع معظم تلك الدول القديمة تحت قبضة القوى الاستعمارية لفترات طويلة ، مما صبغ نظام الدولة فى تلك المناطق بصبغة تسلطية استبدادية ، أو يرجع إلى أسباب داخلية تتمثل فى أن قدم نظام الدولة بتلك الدول ورسوخ بنيانها على مر التاريخ فى نسيج الضمير القومى للأفراد ، أدى إلى تعاملهم معها كقدر لايمكنهم مجرد التفكير فى تغييره ، قدر وُجد بهذا الشكل القمعى ليبقى . وبهذا تظهر الدولة القهرية فى العالم المعاصر كنموذج حفرى للدولة الناشئة إبان فجر التاريخ بكل قمعيتها ودمويتها ، ولكن مع اختلاف فى

www.alkottob.com

شكل المؤسسات التنظيمية التى تم اقتباسها من نظام الدولة التعاقدية المعاصرة .

واكتشف الكاتب أن النظام القهرى للدولة استطاع الصمود فى وجه التطور التاريخى ، لأنه أفرز نظامه الاقتصادى الخاص به ، والذى يقوم على أسلوب " النهب المنظم " . فحكومة الدولة القهرية تدير الاقتصاد الوطنى بأسلوب الشركة التى تتكون من شريكين ، الشريك الأول هو الحكومة وتشارك فى الشركة برأس المال والذى يتكون من كل أصول وموارد الدولة ، والشريك الثانى هو الشعب ويشارك فى الشركة بالمجهود . وبذلك يتم توزيع الجانب الأكبر من الأرباح على الحكومة صاحبة رأس المال ، ويمثلها الحاكم وكبار المسئولين الحكوميين والمقربين والمنتفعين ، بينما يحصل أفراد الشعب على رواتب شهرية مقابل جهودهم . وبهذه الرؤية يصبح اقتصاد النهب المنظم هو المقابل الموضوعى لنظام الدولة القهرية ، التى يحكم الأقوياء فيها الضعفاء . فالأقوياء يحكمون فيسيطرون فيملكون ، والضعفاء هم المحكومون الأجراء الكادحون .

ويؤكد الكاتب أن اقتصاد النهب المنظم ليس مجرد طرحٍ نظري لايجد صداه فى أرض الواقع . وإنما هو يمثل القوة المحركة التى أدت إلى عدم زوال الدولة القهرية من العالم ، وذلك لأنه ليس

www.alkottob.com

مجرد نهب وإنما هو نهب منظم تمارسه الدولة من خلال اضطلاعها بالحكم. فقدم الدولة القهرية أدى إلى تراكم خبرتها فى مجال النهب ، ووجدت أن النهب العشوائى المكشوف يؤدى إلى وضع الدولة على حافة هاوية الإفلاس أو الثورة ، بما يؤدى حتماً إلى سقوطها . ولذلك كان أسلوب النهب المنظم من خلال الاضطلاع بمسئوليات الحكم هو خير السبل لتحقيق قدرٍ من التوازن يسمح باستمرار الدولة والنهب معاً. فمن خلال الاضطلاع بمسئوليات الإنفاق العام على كافة قطاعات الدولة ومرافقها ومؤسساتها ، يتقاضى كبار المسئولين حوافز جانبية تساوى مئات أضعاف مرتباتهم. ولعل أسلوب توزيع تلك الحوافز هو الذى كتب لها الاستمرار والتضخم. فكافة المسئولين الحكوميين ملتزمون بإعداد كشوف شهرية للحوافز تحت مسميات مختلفة تتفق وأنشطة المرفق الحكومى القائمين عليه . وتُدرج بهذه الكشوف أو الاستمارات أسماؤهم وأسماء كبار مساعديه م واسم المستشار المشرف على القطاع بالإضافة إلى اسم الحاكم ، والذى بمجرد وضع اسمه فى الكشوف تكتسب الحصانة والشرعية ، وتنجو من أى مراجعة أو رقابة مالية . ويوضح الكاتب أن الرقم الذى يمثل عملية النهب المنظم يتراوح ما بين □□٪ إلى □□٪ من إجمالى الإنفاق العام للدولة . وبذلك فإن اقتصاد النهب المنظم هو اقتصاد الناتج القومى فيه = صفر ، أو هو اقتصاد مدين . وبهذا

www.alkottob.com

تحول الإنفاق العام إلى المنجم الذى يفجر ذهباً للدولة القهرية ، ويجنى من ورائه المسئولون الحكوميون ثروات طائلة بشكل شبه رسمى لا تناهضه المؤسسات الرقابية بالدولة .

ولعل مكمن الخطورة فى اقتصاد النهب المنظم يتركز فى أن شيوع ظاهرة ثراء القيادات الحكومية من مناصبها القيادية ، يؤدى إلى تغاضيها عن تفشى الفساد فى باقى أجزاء الهرم الوظيفى ، من بعد القمة وحتى القاعدة ، ولذلك تمطر السماء فساداً فى الدول التى تكون السيادة فيها لنظرية النهب المنظم. وتصبح العمولات والرشاوى والوساطات هى القواعد المحركة والحاكمة بكافة قطاعات المجتمع. كما تتركز خطورة النهب المنظم أيضاً فى ارتباطه الوثيق بعملية التنمية ،من خلال التوسع فى إنشاء وإقامة المؤسسات والقطاعات والمؤتمرات والمهرجانات الحكومية التى تضاف إلى البناء الإدارى للدولة القهرية، من أجل زيادة حصة المسئولين الحكوميين من النهب المنظم. وذلك دون الالتفات إلى مدى حاجة المجتمع إلى تلك الكيانات الجديدة ، أو حتى الاهتمام بمستوى أدائها فى حالة احتياج المجتمع إليها. وبالتالى تظهر الدولة القه رية ككيان حضارى خادع ، راسخ المظهر ولكنه أجوف المضمون . فكافة مؤسسات الدولة القهرية هى مجرد كيانات جوفاء لا تحقق الأهداف

www.alkottob.com

المرجوة من إنشائها ، إن لم تكن بالفعل تحقق عكسها .

فمؤسسة العدالة تتحول فى ظل الدولة القهرية إلى مؤسسة للعدل البطىء الأقرب إلى الظلم ، والمؤسسة التشريعية تتحول إلى غطاء قانونى للدولة القهرية لتقنين تجاوزاتها ، ومؤسسة التعليم تتحول إلى مؤسسة لترويج ثقافة الأمية ، ومؤسسة الإعلام إلى نافذة لتزييف وعى الشعب . وبهذا تفقد الدولة الهدف من وجودها ، وتصبح عبئاً على الشعب . فطالما تحولت المواطَنة إلى مجرد واجبات تكفل قمعية السلطة الالتزام بها ، بينما تغيب تماماً أبسط الحقوق ، فإن الدولة تصبح عبئاً ثقيلاً على الفرد ، وتصبح القبيلة البدائية أكثر ضمانا لحقوقه ، بينما هى أكثر تساهلاً فى إلزامه بواجباته.

وقد قدم الكاتب رؤيته لمستقبل الدولة القهرية ، والتى لايتوقع زوالها إلا بأحد ثلاثة احتمالات :

- إندلاع صراع على السلطة بعد وفاة حاكم الدولة فجأة ، بما يؤدى إلى فوضى تعقبها ثورة شعبية عارمة تزيل الدولة القهرية من جذورها .

- إندلاع صراع على السلطة بعد وفاة الحاكم إثر مرض طويل ، يعقبه تفكك للدولة القهرية إلى عدة دويلات تحكمها زعامات

www.alkottob.com

متصارعة ، بما يؤدى إلى تدخل المجتمع الدولى لوقف الصراع و إقامة دولة تحررية .

- غزو قوة خارجية تحررية للدولة القهرية فى حالة تهديدها لمصالحها المباشرة ، وتقويضها و إقامة نظام تحررى تابع على أنقاضها .

وفى الفصل الأخير من الكتاب يقدم الكاتب اختباراً عملياً لنظريته من خلال تطبيقها على اقتصاد هذا البلد . ويصل فيه إلى نتائج تتفق كثيراً ونظريته . ولكنه يصرح بأنه اكتشف أن أسلوب نهب الحاكم الحالى لأموال الدولة يعد أسلوباً فريداً يضيف بعداً جديداً إلى نظرية النهب المنظم . فلقد أضاف الحاكم إلى الوسائل التقليدية أسلوباً جديداً يقوم على إنشاء الشركات الوهمية التى تتعدد أنشطتها بتعدد أنشطة الدولة ، وتنفرد هذه الشركات دون غيرها بالحصول على حق تنفيذ كافة المشروعات العامة بالبلاد ، نظير تكاليف مبالغ فيها ، وذلك بتوجيهات سرية من الحاكم . ثم تقوم تلك الشركات الوهمية ببيع حقوق تنفيذ تلك المشروعات من الباطن إلى شركات أخرى هى فى معظمها شركات المستشارين وأبنائهم ، والتى سرعان ما تبيع حقوق التنفيذ إلى شركات المقربين والمنتفعين ، والذين يبيعونها فى نهاية المطاف إلى شركات المواطنين،

www.alkottob.com

والتى تضطلع فعلاً بتنفيذ تلك المشروعات . وبذلك يضمن الحاكم بانتهاجه لهذا الأسلوب عدم تورطه فى أية مخالفات مالية تلحق باسمه . لأن الأموال الناتجه عن الشركات الوهمية سرعان مايتم إيداعها بحسابات سرية فى مصارف دول أجنبية ، نظير التنازل عن فوائد تلك الأموال لحكومات تلك الدول لاستخدامها لتغطية أى عجز فى ميزانياتها ، وذلك ضماناً للمزيد من السرية لقاء هذه المنفعة المتبادلة . ويؤكد الكاتب بأنه قام بعملية استقصاء واسعة حتى يتأكد من صحة تلك الوقائع التى يسردها ، فوجد أن كافة الشركات التى تحصل على أصل حقوق تنفيذ المشروعات العامة ، يملكها أشخاص لاوجود لهم . ثم إنه تتبع تلك السلسلة التنازلية التى تمر بها عملية بيع حقوق التنفيذ حتى تصل إلى شركات المواطنين . فوجد بأن الحقيقة المؤكدة هى أن تلك الشركات الوهمية المملوكه لأشخاص لا وجود لهم ، لا يمكن أن تخضع إلا لملكية شخص واحد فقط ، هو الذى يجرؤ على الاستهانة بكافة القوانين .. وهو .. الحاكم .

....ما إن انتهيت من هذا الكتاب حتى وجدتنى مبهوراً ، وكأننى اكتشفت شيئا كنت أبحث عنه من زمن . فهذه الأفكار كان لها صدى عميق فى عقلى ، جعلنى أقتنع بها بمجرد قراءتها ، وكأننى

www.alkottob.com

طالعتها قبل ذلك، أو عايشت ظروفاً وأحوالاً هى تفسرها ....

فتُرى هل انحنى ظهرى من قبل بعبء الدولة .. وانهارت أحلامى من

قبل تحت سطوة النهب المنظم.. لا أدرى ؟ ولكن إلى متى سأظل

لا أدرى ؟ وهل من الأفضل ان أعرف الجواب ؟ أم من الأفضل أن يظل

السؤال بلا إجابة ؟ ... بلا إجابة.

* * *

" ..... منا الصالحون ..... "

(سورة الجن ـ الآية)

الصالحون

هم الصالحون .. منهم الفرسان والشهداء والقديسون . ومنهم

الأنبياء والرسل والصديقون . انطلق ركبهم منذ بدء الخليقة

لينشروا الحب والخير والعدل والسلام، فلم يقاتلوا إلا لصد هجوم،

ولم يعتدوا إلا لاسترداد حقوق . وما كانوا ثواراً إلا فى وجه

الطغاة ، وما كانوا أعواناً إلا فى عهود العادلين. ولئن طالت

www.alkottob.com

عليهم عصور العذاب والاستبداد فمرجعهم كان هو الإيمان ، ولئن دانت لهم أزمان السلام والرخاء فمذهبهم كان هو الحرية والمساواة .... إنهم هدية السماء إلى هذا العالم ولو كره الشياطين .

هم الصالحون .. الذين بدأوا الدعوة الخالدة للإله الواحد الأحد ، بعدما ضل العباد وتفرقوا أشتاتاً. فمنهم من عبد الشمس ومن عبد القمر ، ومن عبد الأصنام ومن عبد النار ، ومن عبد الملوك والقياصرة ومن عبد الحيوانات والطيور . ولكن هم اختاروا الهدى وأشرقوا بنور ربهم ليبشروا بخالق كل شيء ، القائم على كل شيء ، القادر على كل شيء ، والذي ليس كمثله شيء . و قوبلت دعوتهم في البدء بالتجاهل ، ثم أحاط بهم بعد ذلك الاستهزاء ، وأمام إصرارهم ألَمَّ بهم الإيذاء والتعذيب والتنكيل، فمنهم من ألقي في النار أو صُلِبَ على الأشجار ، أو رماه الفجار بالجنون ثم رجموه بالأحجار. ولكن ما لبثت الدعوة أن انتشرت بصلابة عزمهم وقوة إيمانهم ، وانتصرت عقيدة الواحد الأحد ، وتأسست القاعدة التي دعت لها كافة الرسالات السماوية ، وتحددت علاقة السماء بالعباد .

ومثلما كانوا رسل الواحد الأحد في مواجهة الوثنية والإلحاد . أصبحوا رسل الحرية في مواجهة وباء الرق والعبودية . فقاوموا

www.alkottob.com

تحول عالم الجن إلى معسكر كبير للأسرى يساق فيه العباد بالسياط ليقوموا بأعمال الحيوانات بينما تكبلهم السلاسل والأغلال . وانطلقوا يجاهرون بالدعوة للحرية ، وبأن الله خلق العباد كلهم أحراراً لا يحق لبعضهم أن يمتلك البعض . وجابوا أقطار البلاد وأرجاءها ينشرون دعوتهم حتى تجمعت حولهم جحافل العبيد المدحورة ، وسرعان ما اشتعلت الثورات فى مواجهة بطش السادة وتجار الرقيق ، وأشرقت شمس الحرية على العالم بعدما قدموا هم أرواحهم الطاهرة فداءً لهذا الفجر .

وتقدمت قافلة الحرية تغزو عالم الجن ، ولكن ما فائدة الحرية فى ظل الاستبداد ؟ هكذا تساءل الصالحون، فمع غياب العدل تصبح الحرية قيمة بلا معنى . فانبرى نفرٌ منهم يدعو لإقامة العدل كفضيلة ، بينما انكب نفرٌ آخر على وضع أسس وقواعد العدالة وتطبيقاتها ، فابتكروا نظرية القانون وأسسوا قاعدة احتكام العباد إلى تشريع معلن ينظم المعاملات والحقوق والواجبات . فوضعوا بذلك الأسس الأولى للدولة كبناء قانونى ، بعدما كانت مجرد بناء اجتماعى . ولكن مع دوران عجلة التاريخ ، أيقنوا بأن العدالة لا تنشر نفوذها فى ظل مناخ التمييز والطبقية . حيث تصبح القوانين كخيوط العنكبوت تتعثر فيها الحشرات الضعيفة بينما تعصف بها الوحوش الكاسرة .

www.alkottob.com

لذلك حملوا شعلة الدعوة لمبدأ المساواة وتصادموا مع أرباب المصالح الطبقية والتمايزات العرقية . وأثمر التصادم بعد طول جهاد وتضحيات عن ميلاد فكرة الدستور كقانون سامى يعلو فوق كافة القوانين وتستمد منه أطر عملها ، وفق مبدأ عام يؤكد على المساواة بين كافة المواطنين .

وبهذه الخطوة وضع الصالحون عالم الجن على أول طريق النضج الحضارى ، ولكن كانت أمامهم بعد ذلك موقعة فاصلة ، كان النصر فيها يعنى القفز بالعباد إلى قمة الرقى والسمو العقلى . فقد أعلنوا الحرب على الخرافة وأساطيرها ، وجابهوا سطوة امتلاكها للعقول والنفوس ، واتخاذها للأديان السماوية كغطاء لتبرير ما لا يقبله المنطق والعقل . ولقد كانت هذه أشد معاركهم ، فالعدو هنا متغلغل فى نفوس العباد وأعماقهم ، ومواجهته هى مواجهة لعادات وموروثات وتقاليد تأصلت حتى باتت كيانات مقدسة لا يداخلها الشك لذلك كان سلاحهم الوحيد هو العلم ، فلقد آمنوا أن يقين العلم ونتائجه الملموسة وفوائده العملية ستكون بمثابة حائط منيع ، سينتصب بمرور الزمان فى وجه أصنام الخرافة وكهنوتها . وبذلك أرسوا منارة للعقل أشعت بنور العلم فى كافة الأنحاء ، فانقلبت الحضارة من البدائية إلى الآلية . ومن مسايرة الطبيعة إلى السيطرة عليها .

www.alkottob.com

وأصبح الجن بواسطة سلطان العقل سادة العالم الذى يعيشون فيه بدون منازع وبدون شريك.

ولقد ظن الصالحون أن انتصار العقل سيضمن لعالم الجن الحفاظ على كافة مكتسباته التاريخية ، بدءاً من الإيمان ثم الحرية فالعدالة فالمساواة ، وبذلك يتحقق السلام الخالد للعباد . ولكن كان الشياطين دائماً بالمرصاد ، فحولوا العلم إلى أسلحة فتاكة للقتل والدمار، فاشتعلت الحروب التى تبدأ ولا تنتهى ، وسالت الدماء وأُزهقت الأرواح وخُربت المدن . ونشط الصالحون وأقاموا المنظمات العالمية التى ترعى السلام بين الشعوب وتضمن استمراره . ولكن ظل السلام أملاً بعيد المنال ، فمقدرات العالم تتحكم بها فى الخفاء أيادى الشياطين ، وكافة ما نجح الصالحون فى تأسيسه وإقامته على مدى التاريخ ليوفر لهذا العالم فى نهاية المطاف الأمن والسلام ، لم يسفر فى نتيجته الأخيرة إلا عن الحروب والدمار . ويتساءل الصالحون دائماً فى ذهول : هل كُتب على العالم أن يظل يسعى للسلام فلا يدركه ؟ وهل يتناقض السلام كغاية مع مسئولية الجن فى الاختيار ؟ ولذلك سيظل العالم يتوق إلى السلام ويكد للوصول إليه فى هذه الدنيا ، ولكنه لن يصل إليه إلا فى الحياة الآخرة . ولعدم وصولهم حتى الآن إلى جواب ، فقد رفضت نفوسهم الطاهرة أن تتابع فصول المأساة فى

www.alkottob.com

استسلام ، وآمنوا أن فشلهم فى وقف القتال والحروب والمجازر بين العباد ، لايجب أن يثبط همتهم عن حماية البيئة والطبيعة من اعتداءات بنى الجان ، فما معنى طموحهم إلى السلام المنشود لو تخرب هذا العالم وتشوهت بيئته وطبيعته الربانية ، وكيف يعيش العباد فى سلام وهم يقتلون الحياة من حولهم فى كل مكان . لذلك هم يحملون الآن عبء الدعوة إلى حماية البيئة والطبيعة من العدوان والتلوث . وهم موقنون بأن نجاحهم فى إقرار السلام مع البيئة ربما يكون البداية لإقامة السلام بين العباد .

....ولقد بزغت نجوم الصالحين فى ظلام هذا البلد ، وعانقت خطواتهم ثراه ، وانطلقت فى أرجائه دعوتهم حول الحرية والعدالة والمساواة والسلام . ولكن دائما سرعان ما كانت تأفل نجومهم وتذوى أفكارهم . وكأن هذه البقاع تدفن فى أحشائها الأفكار الصالحة بينما تنمو وتزدهر على سطحها الضلالات والأباطيل . فلقد درج الشياطين منذ زمن على وأد أية حركة فكرية إصلاحية ، وكان مصير كافة المشروعات التنويرية الكمون على أرفف المكتبات العامة ، دون أية محاولة لترويجها وغرسها فى نفوس العباد . كما سيطر الشياطين على كافة منابر الرأى والفكر والثقافة فى هذا البلد ، فمسخوا الإيمان إلى

www.alkottob.com

قدرية خانعة ، والحرية إلى قهر متمكن ، والعدالة إلى استبداد طاغى ، والمساواة إلى تفرقة جائرة . ولئن انتصرت بذلك ثقافتهم ودولتهم ، فإن الصالحين رغم ذلك لم يفقدوا الإيمان بحلول عهد جديد ، ولذلك ما زالوا يحاولون نشر دعوتهم ومبادئهم وأفكارهم ، وإن كان صوتهم - حتى الآن - ما زال يذهب أدراج الرياح .

* * *

الأحوال

أصبح الصوت يطارد الحاكم ، أينما ذهب وأينما حل . ففى كافة جولاته صار الصوت يبا غته كالصاعقة ، وفى لحظة دائماً ما تكون غير متوقعة ، مما حدا به إلى إلغائه لكافة تحركاته ، ومكوثه بقصره المشيد ريثما يتم اكتشاف سر هذه اللعنة التى لم تلحق إلا بعهده .

ولكن بتوالى الأيام حدث تطورٌ خطيرٌ . فلقد بدأ الصوت يتردد فى مدن متفرقة وقرى متعددة ، وأصبح لا يمر يومٌ إلا وتتواتر الأنباء عن انطلاق الصوت فى بقعة ما . وأدرك الحاكم أن الأمر لا

www.alkottob.com

يمكن السكوت عليه ، وإلا أفلتت الأمور من بين يديه واشتعلت الثورة بين العباد . فأسرع بإعلان حالة الطوارىء وفرض حظر التجول من الغروب حتى الشروق على كافة أنحاء البلاد ، وأمر بنزول الجيش بكافة تسليحاته إلى الحدود بين المدن والمقاطعات والأحياء وعلى الطرق السريعة ، بالإضافة إلى التمركز بالميادين الرئيسية وحول المنشآت الحيوية . وتحولت البلاد بين عشية وضحاها إلى ثكنة عسكرية معالمها الأسلحة الثقيلة التى تتناثر هنا وهناك ، حتى بات معظم العباد لايخرجون من ديارهم خشية عدم ضمان العودة إليها مرة أخرى . حيث توسعت أجهزة الأمن فى عمليات القبض العشوائى أملاً فى التوصل إلى أية معلومة ، وبدأت تطارد بشراسة مجموعات الجائرين داخل كافة المدن ، حتى هج من لم يسقط منهم إلى الأطراف النائية والجبال الوعرة للاختباء فيها . وقد تكدست السجون بمن فيها حتى لم يعد بها مكان لموطىء قدم ، فأشار أحد الشياطين على الحاكم بإعادة إحياء تقليد سليمان النبى ملك الإنس والجن ، بحبس المقبوض عليهم فى القماقم المختومة بخاتم الحكم ، فيتغلب بذلك على مشكلة تكدس السجون ، ويثير الفزع فى نفوس العباد من خلال إحياء تلك العقوبة الرادعة ، فيقرون بما يكتمون . ولكن رغم ذلك ظل الصوت يطارد الحاكم ، وما لبث أن بدأ ينطلق حول قصره المشيد تارة

www.alkottob.com

أثناء النوم وأخرى أثناء اليقظة ، أو أثناء جلسات جنونه الجنسى أو حين قضائه لحاجته . وبات هذا الشيطان العتيد على شفا الانهيار ، فأصدر أمراً باستنفار كافة قوات الدفاع الجوى ، ومنحها تفويضاً مفتوحاً بإطلاق قذائفها فى أى وقت على مصدر الصوت أثناء انطلاقه . لذلك قام كبار الفنيين العسكريين بتسجيل الصوت أثناء ترديده على آلات معينه ، وتلقينه لأجهزة أخرى يتم ربطها بأسلحة الدفاع الجوى ، فما إن يتردد الصوت حتى تتعرف عليه تلك الأجهزة ، فتوجه إشارة فورية للاسلحة فتعمل آلياً وتطلق قذائفها نحو مصدره .

وفوجىء العباد ذات يوم بغليان السماء وهى تشتعل بوابل من القذائف أثناء انطلاق الصوت . ولكن الكارثة أن القذائف لم تكن تصيب شيئاً قط ، وكانت تستمر فى انطلاقها حتى تسقط فى إحدى المناطق النائية أو على أحد الأحياء المكتظة بالسكان . وعم الذعر والفزع بين العباد ، وأصبحوا لا يعرفون إلى أين يفرون ، فالموت ينقض عليهم كالصاعقة من السماء . لذلك قام سكان كل منزل بعمل ورديات فيما بينهم ، يتكفل فيها أحدهم بالمكوث خارج المنزل أو على أعلى سطحه لمراقبة السماء ، وتحذيرهم قبل انقضاض القذائف عليهم . ورغم كثرة المنازل التى انهارت والعباد الذين حصدتهم القذائف ، فإن الحاكم أمر

www.alkottob.com

بالاستمرار فى قصف مصدر الصوت عند انطلاقه ، حتى كان اليوم المشهود . فلقد سقطت القذائف الطائشة على مقر إقامة الابن الأكبر للحاكم وقضت عليه وعلى زوجته وأطفالهما . وطار النبأ إلى الحاكم الذى تلقاه أثناء جلوسه على العرش ، فتجمدت نظراته وتصلبت ملامحه وتقوض بنيانه ، كأنما غار جسده داخل عرشه ، وظل على هذه الحال بضعة ساعات ولا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ، حتى ثاب إلى رشده ، فأمر بإلغاء تفويضه لقوات الدفاع الجوى بقصف مصدر الصوت ، وبإلقاء القبض على قائد قوات الدفاع الجوى وضباط وجنود الوحدة التى أصابت مقر ولده ، ودفنهم جميعاً أحياءً فى نفس القبر الذى سريضم جثمان ولده وزوجته وأطفالهما .

* * * *

اخترقت الجنازة المهيبة الطريق من قصر الحاكم إلى النصب الشامخ الذى شيده لتخليد عهده ، ولاتخاذه مدفناً لجثمانه بعد موته . وتقدم الجنازة مكبلاً بالأصفاد قائد الدفاع الجوى وضباطه وجنوده المتهمين وهم يتعثرون فى الأغلال ، وتنهال عليهم السياط من حراسهم الأشداء . يتلوهم الجثمان تحمله عفاريت الجن فى الهواء ، وخلفه سار الحاكم وسط مستشاريه ، ووراءهم جحافل الشياطين والمقربين والمنتفعين بنسائهم وأولادهم ، بينما

www.alkottob.com

وقفت على جانبى الطريق الطويل جموع العباد المحتشدة فى ثبات وسكون كالأصنام ، يحجزهم عن نهر الطريق صف طويل من رجال الأمن حاملى الهراوات والأسلحة .

وعند وصول موكب الجنازة إلى النصب ، تقدم الحاكم إلى القبر ، وقام خدم المقبرة برفع حجر كبير منحوتٍ عليه شعار الحكم ، فانكشفت فتحة القبر مظلمة باردة تأوى بداخلها المجهول . ووسط دهشة الحضور أفلتت نهنهة من الحاكم وسالت دموعه على خديه ، وأمر من خلال دموعه ببدء مراسم الدفن بإلقاء المتهمين أحياءً داخل القبر ، ثم الشروع فى تسجية جثمان ولده الغالى فى مثواه الأخير . وأحاط الحراس بالمتهمين الذين ركبهم التشنج والرعب واقتادوهم عنوة إلى حافة القبر ... وفجأة .... انفجر الصوت مزمجراً راعداً صادراً من داخل ظلام فتحة القبر (هى كانت عزبة أبوك) . وسقط الحاكم وكافة المحيطين به مفجوعين من هول المباغتة على الأرض ، وعم الذعر والهلع ، وسادت الفوضى جموع الحاضرين ، وانطلق كل منهم فاراً إلى أى اتجاه . وأخذ الحاكم يتلوى على الأرض ويخبط عليها بيديه وقدميه كأنما أصابه صرع ، ثم انتفض قائماً وأخذ يشيح بيديه فى الهواء ويركل بقدميه الفراغ ، ويصيح وهو يترنم :

www.alkottob.com

لا ليست عزبة أبى .. بل هى عزبتى أنا .. أنا أعظم من حكم هذا البلد . هى عزبتى أنا .. أملكها بكل أراضيها .. ومن عليها من عباد ونبات وحيوان . ولن تفلت منى أيها الصوت .. سأقلب كل حجر .. وأنسف كل جبل .. وأفتش كل جحر .. حتى أجدك أيها الصوت . هى عزبتى أنا .. أنا وحدى .. ولن تسلب منى عزبتى .. لن تسلب منى عزبتى .

واستمر يهلل ويناطح فى الفراغ حتى سقط مهدوداً فى مكانه ، تعلوه سماء مكفهرة قاتمة بلون الغضب ، وبجواره جثث الموتى فى أكفانها والمحكوم عليهم بالدفن أحياءً فى أغلالهم ، وقبر مظلم فاغر فاه فى وجه السماء .

على هامش الأحوال

أُعلن الحداد على نجل الحاكم لمدة ثلاثين يوماً . مع استمرار حظر التجول وانتشار قوات الجيش فى أنحاء البلد . ولقد نصحتنى نورجان بضرورة اكتفائى بهذا القدر من رحلتى معها ، والعودة سريعاً إلى عالمى البشرى ، فالأوضاع تتوتر يوماً بعد آخر ، ولا يمكن التنبؤ بما سيسفر عنه الغد ، وهى تخشى أن تطولنى إحدى

www.alkottob.com

عمليات القبض العشوائى فينكشف أمرى وأمرها ، وينالنا مالا نتخيل من التنكيل والعذاب .

ولكننى واجهتها بتصميمى على البقاء حتى يمكننى الإحاطة بكل ما أريد معرفته عن هذا العالم وهذا البلد . وطالما التزمنا بالحيطة والحذر فلن يصيبنا إلا ما قُدّر لنا . فوافقتْ نورجان على مضض ، وأخبرتنى بأنها نجحت فى ترتيب موعدٍ لى مع أحد كبار الصالحين ، وسيستقبلنى باعتبارى مراسلاً إعلامياً أجنبياً أقوم بإعداد كتاب عن الأوضاع فى هذا الجزء من العالم ، وبذلك يمكننى من خلال الحوار معه تكوين فكرة عامة عن الأحوال من وجهة نظر الصالحين .

وعندما حان الموعد ذهبنا معاً ، واستقبلنا الرجل الذى لم تخف جدية ملامحه.. تواضعه ، وصفاءه الروحى النابع من توافق عميق مع النفس . ولقد امتد حوارى معه حوالى الساعتين قدم لى فيهما رؤية عقلانية رصينة أضافت الكثير إلى مداركى حول هذا العالم وأحواله وشئونه .

بدأ الحوار بتعبير الرجل عن أسفه وقلقه لغرق عالم الجن الآن فى التفاصيل والجزئيات مع الإغفال التام للعموميات و الكليات ، مما أدى إلى أن تتهاوى يوماً بعد آخر القدرة على التفاهم

www.alkottob.com

والتواصل، طالما أن العالم فقد الإطار الإدراكى الفلسفى الجامع وسقط فى شبكة الرؤى الجزئية المتعارضة .

وأبدى الرجل دهشته من إفساد العباد للأديان السماوية ، ودفعها إلى ساحة الجزئيات التفصيلية بكل خلافاتها وصراعاتها ، بالرغم من أن الأديان السماوية فى صورتها النقية هى التراث العالمى الوحيد الذى يتميز بالاتساق والتكامل والشمولية . فالراصد لتاريخ الأديان السماوية يلحظ أن أتباع كل ديانة استنبطوا منها فروعاً عديدة ، حتى غطت تلك الفروع الكثيفة بمرور الزمن على الأصل الإلهى النقى ، ثم قاموا بتجميع تلك الفروع حتى شكلت فى مجملها شريه ديانة موازية للديانة الأصلية . فالديانة السماوية الأولى تفرع عنها ما أطلقوا عليه "التلمود" ، ففقدت بذلك المَعين الإلهى الطاهر الذى نبعت منه وصاياها العشر ، وتحولت إلى ديانة منغلقة تقصر رحمتها وخيرها على أتباعها بينما تحض على احتقار واستغلال باقى العباد .

وهبطت الديانة السماوية الثانية لتعالج الغطرسة التى تشبعت بها نفوس أصحاب الديانة الأولى . فدعت إلى المحبة والتسامح والرحمة ، لكن تفرع عنها ما أطلقوا عليه "اللاهوت" ، ففقدت بذلك بساطتها وفطرتها ، وتحولت إلى ديانة معقدة متشددة ، تطلب من أتباعها أن يتجاهلوا ملكوت الدنيا من أجل ملكوت

www.alkottob.com

السماء ، فتجاوزتها بذلك الأحداث لتعارض أعبائها الإيمانية مع مطالب الحياة . وبذلك انفصل الدين عن الدنيا ، وانتصر الواقع على المثال .

وهبطت الديانة السماوية الأخيرة لتوازن بين الدنيا وبين الدين ، وذلك من خلال تعاليم تتميز بالبساطة واليسر ، تكفل الله بحفظها فى أذكاره المقدسة ، ودعت إلى تعمير الدنيا والتعارف بين شعوبها، بالأعمال والعلاقات الصالحة التى ترضى عنها السماء . لكن تفرع عنها ما أطلقوا عليه " الفقه " ، والذى حفل بالمذاهب المتعارضة والتأويلات المتعسفة المعسرة ، فتوارت الأذكار الإلهية المقدسة وحلت محلها الفتاوى والروايات ، و انزوى ما تكفل الله بحفظه خلف ما تكفل بحفظه العباد .

ولعل المحلل للأوضاع العالمية الراهنة يجد بأن أتباع الديانة الأولى بغطرستهم ، واستباحتهم لأوطان وأموال الآخرين ، تمكنوا من التحكم فى الاقتصاد العالمى من خلال تحقيق تراكم مالى على مر العصور ، نتج من خلال القدرة على الاستغلال والاستنزاف دون أى وازع من ضمير ، وتحت غطاء دينى تبرره تعاليم التلمود . كما أن الديانة الثانية لتشدد لاهوتها تجاهله أتباعها ، وأقاموا حضارة معاصرة تتناقض تماماً مع كافة

www.alkottob.com

تعاليمه ، حضارة تؤمن بالفردية والحرية والعملية والمادية والعلم ، ولكنها تفتقر كثيراً إلى دفء الإيمان .

أما أتباع الديانة الأخيرة فقد أقاموا فى البدء حضارة عارمة ، ولكنهم بمرور الزمن انحدروا إلى حالة مزرية وأزمة مستحكمة تتناقض تماماً مع قدرة دينهم على إنشاء حضارة متوازنة تجمع بين الدنيا والدين . وأمام هذا التناقض انكب الرجل على دراسة التطور التاريخى للديانة السماوية الأخيرة ، حتى استطاع التوصل إلى نتائج هامة تضع تفسيراً لأزمة الفقر والتخلف التى تحيط بأتباعها وشعوبها . فقد رصد من خلال تتبعه لتاريخ أمة الديانة السماوية الأخيرة مرورها "بثلاث موجات متتابعة" ، تشكلت من خلال الصراع أو الاتحاد ما بين نمط الفكر ونمط الفعل ، أو كما أسماه نمط "الوعى" مقابل نمط "الإرادة".

كانت الموجة الأولى هى موجة الوعى والإرادة فى تاريخ تلك الأمة ، وبدأت فى العهود الأولى لتلك الديانة ، عهود الحكام الراشدين . فقد أدت ظروف فتوة ونشأة الرسالة السماوية إلى الربط الوثيق ما بين المعتقد الدينى والمسار الدنيوى . حيث تمثل المعتقد الدينى فى وهج تعاليم الأذكار المقدسة التى هبطت تباعاً على عباد عاينوا ذلك ، فتشكل وعيهم بتعاليم الوحى الإلهى وأقوال الرسول ، بينما تمثل المسار الدنيوى فى زخم الفتوحات

www.alkottob.com

العسكرية التى جعلت لكل مشارك فيها قدراً من الاعتراف بحقه فى صنع القرار، لأن سيفه شارك وما زال يشارك فى إقامة تلك الدولة الناشئة . لقد ارتبط فى هذا العهد النقى الإيمان بالفتح والدين بالدنيا . وبذلك تميزت تلك الموجة باتحاد نمطى الوعى والإرادة .

وبدأت الموجة الثانية ـ موجة الوعى بلا إرادة ـ مع توقف الفتوحات العسكرية ، وظهور عهد دولة النعمة والرفاهية ، وحدوث حالة من الاستقرار السياسى . حيث أضحى الأفراد فى حاجة إلى سلطة فردية متحكمة تحمل عنهم عناء المشاركة فى اتخاذ القرار ، لتتاح لهم فرصة التنعم برغد العيش والقدرة على استخدام ملكة العقل التى تتألق فى ظل التفرغ والاستقرار . فبدأ يأفل تدريجياً نجم الفعل وينسحب إلى قبضة الحكام ، وبقى يلمع وحيداً فى سماء الأمة نجم الفكر . فازدهرت حركة الاجتهاد والعلوم والفنون ، فى حين تنازلت الأمة عن إرادتها للحاكم الفرد .

وكان هذا إيذاناً ببدء الموجة الثالثة ، موجة اللاوعى واللاإرادة . فلطالما أثبتت دروس التاريخ بأن تركز الفعل بيد سلطة فردية يجعلها سريعاً ما تشتط وتضيق بالفكر المسئول المتجرد . لذلك بدأت المواجهة مستترة أولاً ، ثم معلنة بعد ذلك ،

www.alkottob.com

حتى توقفت إلى غير رجعة حركة الاجتهاد وتدهورت العلوم والفنون. وأصبح الفقهاء والعلماء فى خدمة الخلافة السلطوية الفردية الوراثية . ومنذئذ صارت أمة الديانة السماوية الأخيرة تحكمها إرادة الحاكم ويصيغ وعيها فكر الممالئين للسلطة ، أمة مشاهدة متفرجة.

ولذلك فإن التحليل العلمى للأوضاع الراهنة يؤكد بأن الموجة الرابعة المتوقعة لن تخرج عن أحد ثلاثة احتمالات :

ـ موجة تسترد فيها الأمة وعيها .

ـ أو موجة تسترد فيها الأمة إرادتها .

ـ أو موجة تسترد فيها الأمة إرادتها ووعيها معاً .

والغريب أن كافة المحاولات التنويرية لتحقيق الاحتمال الأول لم تخرج عن كونها محاولات فردية ماتت بموت أصحابها ، ولم تلق أى دفع أو تنمية من السلطة ، لتأسيس قاعدة تنويرية للأجيال القادمة تمكنها من امتلاك وعيها ، بل على العكس لاقت من العسف والمطاردة ما جعلها تنطفىء وتنزوى داخل صدور أصحابها ، دون أية محاولة لنشرها لتخصيب التربة الفكرية القاحلة . ولهذا لم تتهيأ التربة إلا للاحتمال الثانى وهو أن تسترد الأمة إرادتها ، وهذا ما يؤكده الآن انتشار تنظيمات الجائرين فى

www.alkottob.com

كافة بلدان الديانة الأخيرة . ولكن لأن تلك الإرادة تتخلق فى ظل أمة تفتقد فكرها ووعيها ، فإنها لا تطرح إلا أسهل الخيارات الفكرية ـ كغطاء لها ـ وهو فكر "التكفير" . فالفكر الضعيف لا يسانده إلا فعل قوى عنيف متفجر متطرف ، حتى يتوازن معتنقو ذلك الفكر مع أنفسهم . لذلك بزغ تيار العنف والتطرف الذى يمثله الجائرون ، فأمة بلا إرادة وبلا فكر، لاتنتج إلا فكراً مريضاً أو فعلاً عنيفاً أو الاثنين معاً . ولن تنجو أمة الديانة الأخيرة من الفقر والتخلف ، طالما ظل الشياطين يحكمونها ، وطالما ظل الجائرون هم أول الوارثين .

.... وعندما أنهى الرجل حديثه ، لمح الوجوم البادي على وجهينا . فاعترف لنا بأن الوجوم هو حقاً الرد الوحيد المناسب على هذا الواقع المرير ، ولكن .. لكن الآن فقط .. ظهر على الساحة متغير جديد . وربما يكون هو السبيل الوحيد الباقى لتحقيق الاحتمال الثالث فى أن تمتلك الأمة وعيها وإرادتها معاً مرة أخرى . وهذا المتغير الجديد هو .. الصوت .. نعم الصوت ، إنه صوت السماء .. السماء التى تتدخل دائماً عندما يتبدد كل أمل وكل رجاء ، إنه صوت السماء يدعونا نحن العباد لنتدخل ونواجه ونثور . ولقد قررنا نحن الصالحين ، أن نبدأ فى حشد العباد

www.alkottob.com

وتحريضهم، فالمواجهة لم يعد منها مناص ، وإذا لم نتبع إشارة السماء ، فقد حق علينا إذن العذاب إلى يوم الحساب .

* * *

" ..... ومنا القاسطون * ....."

(سورة الجن ـ الآية □□)

* القاسطون : جمع قاسط أى جائر ، وهو من يجور ويحيد عن الحق .

الجائرون

رفضوا منذ القدم أن يضيئوا شمعة ، وقرروا أن يقاتلوا أو يعتزلوا الظلام . هذه هى شريعتهم ، وهذا هو منهجهم . وهم بذلك خير مثل لمحنة الجن فى مواجهة فتنة الاختيار ، ومعترك الاختبار ، ومسئولية القرار .

كما أنهم ظاهرة خلافية وإشكالية مزمنة فى تاريخ العالم . فقد ترفضهم العاطفة حينما يقبلهم العقل ، وقد تساندهم المشاعر بينما يعاديهم المنطق . ولطالما مجدتهم بعض العصور كشهداء وأولياء ، ولعنتهم عصور أخرى كسفاحين وأفاقين . إنهم الجزاء

www.alkottob.com

العادل للشياطين .. والنقيض الأسود للصالحين.. والمستقبل المجهول للسناكيم .

وخطورتهم تكمن فى أنهم نصبوا أنفسهم دائما كقضاة عندما كانوا هم الضحايا . وترافعوا دائماً كمدعين عندما كانوا هم المتهمون . فقد اعتادوا خلط الأوراق ، وقلب الموائد . لأن العنف دائماً كان هو مذهبهم ، والقسوة هى حصنهم العتيد ، سواء كان ذلك على أنفسهم أم على الآخرين.

إنهم قبضة الإرادة ولكن بلا وعى وبلا فكر . وبطش القوة ولكن بلا رحمة و بلا شفقة . ولذلك فهم يعرفون متى يبدأون ولكنهم لا يدركون أبداً

متى ينتهون ، نقيضهم فى ذلك الصالحون الذين لا يعرفون متى ينطلقون ولكنهم يعلمون يقيناً متى يتوقفون .

إنهم أهل التصوف المسافرون إلى الله هرباً من زخرف الدنيا وزينتها . وهم حملة السلام ـ المواجهون لجبروت السلطة ـ طلباً لمناصب الحكم وفتنتها . وفى هذا وذاك .. هم الجائرون . لأنهم فى تصوفهم جاروا على أنفسهم فحرَّموا عليها ما أحله الله ، وجاروا على العباد فطالبوهم بما لا يطيقون . بينما هم فى حملهم للسلام جاروا على أنفسهم فحللوا إزهاق النفس التى حرم الله قتلها إلا

www.alkottob.com

بالحق ، وجاروا على العباد فأخذوهم - رغم كونهم ضحايا - بجريرة المستبدين .

وعلى مدى تاريخهم تتابع ظهورهم من كافة الطبقات . ففى حين ظهروا قديماً كمتصوفة من وسط الطبقات الدنيا ، وانتقلوا بمرور الزمن إلى الطبقات الوسطى ، حتى اكتمل الآن ظهورهم فى طبقات الارستقراطيين . فإنهم برزوا كحملة سلام من وسط الطبقات العليا ، وبمرور الزمن تخرجوا من صفوف الطبقات الوسطى ، حتى صارت الآن تنبت جذورهم فى طبقات الفقراء والمساكين . وبذلك .. هم فى هذا الزمان ، إما الأثرياء المتصوفة ، أو الفقراء المسلحون .

ولعل المتتبع لمشوارهم تتملكه الحيرة من أمرهم . فكيف لا تتعلق النفس بمن يذوبون فى الذات العليا ويهجرون الدنيا ويصيرون من أهل الباطن ! وكيف لا يخشع القلب لمن يدفعون حياتهم ثمناً لقاء مبادئهم ، فيفجروا أنفسهم ويبذلوا أرواحهم من أجل الإيمان بأهدافهم !

ولاشك بأن الحيرة فى أمرهم تتعاظم ، سواءً فى ظل عصور الاستبداد حيث يظهرون بتمردهم المسلح فى ثوب المناضلين ، أو فى ظل عهود الرفاهية حيث يبدون بزهدهم فى الدنيا فى صورة الأتقياء الطاهرين . ولكن قراءة تاريخهم بتعمق وتجرد تثبت

www.alkottob.com

بأن الحيرة فى أمرهم ما هى إلا خديعة . لأنهم ما إن كانوا يصلون إلى السلطة حتى ينقلبوا إلى مستشارين لإبليس ويفرخون فى عهودهم أجيالاً من الشياطين . أو ما إن كان العباد يلتفون حولهم لزهدهم إلا وركبتهم أوهام النبوة وتقوّلوا ببشارات ونذر المرسلين .

ولئن اختلط الأمر على البعض ، لأن النتائج فى تاريخ الجائرين تتناقض مع المعطيات . فإن الحقيقة لا تلبث أن تظهر جلية . فالذين آمنوا بالعنف والقسوة كوسيلة لن تكون غايتهم أبداً رحمة العباد . فانتهاج العنف والدموية للوصول للسلطة يورث الإيمان بالبطش كوسيلة لإسكات المعارضين والمخالفين، ولذلك يثبت التاريخ بأنه لايوجد أسوأ ممن وصلوا للسلطة على جثث الآخرين حتى إن كانوا شياطين ، فالعنف لم يثمر أبداً إلا العنف .

أيضاً .. فإن من اعتنقوا القسوة على النفس كوسيلة للزهد فى الدنيا ، لن تكون جائزتهم أبداً رضى الله ، لأن اعتزال الدنيا كالانتحار ، موت قبل الأوان ، وفراق بلا استئذان ، وهروب من شهوة الأرض إلى فتنة السماء ، وكلاهما سواء ، الإفراط فى أحدهما ، لن يكون آخره إلا .. الضلال .. أو الشتات .

www.alkottob.com

إنهم .. وبكل الأسف .. الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .. فكانوا الأخسرين أعمالاً .. وكان كيدهم فى تضليل .

* * * *

ولقد اشتدت شوكة الجائرين فى هذا البلد ، لأن السلطة كانت تستخدمهم دائما بمكر وبطريقة غير مباشرة لتحقيق أهدافها . فدائما ما كانت تغض الطرف عن تنامى واستشراء طرق أهل الباطن من المتصوفة فلا تعارض موالدهم واجتماعاتهم وطقوسهم وشطحاتهم ، طمعاً فى التفاف المزيد من السناكيم حولهم ، فيهجرون الدنيا ويذهلون عن مسئولياتها ، ويسافرون إلى عالم الأسرار الخفية والآيات العلوية . ويراود الشياطين الأمل فى أن يأتى يوم يتحول فيه كل السناكيم إلى زمرة من المريدين الزاهدين التاركين للدنيا بغنائمها وكنوزها لمن هم يعشقونها .

وعلى الجانب الآخر كانت علاقة السلطة بفصائل وجماعات الجائرين المسلحة تجمع ما بين الحرب المعلنة والتحالف المستتر ، فقد دأب الشياطين على التحالف مع بعض الفصائل للقضاء على الفصائل الأخرى ، فلطالما دعموا الفصائل العلمانية لقتال الفصائل الدينية ، أو ساندوا الجماعات الدينية لمطاردة الجماعات العلمانية

www.alkottob.com

، وظلت هذه السياسة ناجحة إلى زمن قريب ، حتى انقلبت الآية وأفلت الزمام ، وأدت المتاجرة الماكرة برداء الدين إلى أزمة مستعصية ، ففى ظل الحجر على كافة دعاوى وأفكار الصالحين ، والملاحقة المستميتة لجماعات الجائرين العلمانية ، خلت الساحة ودانت لجماعات الجائرين الدينية ، فنمت وترعرعت وأضحت الكابوس المروع لأحلام الشياطين الدموية ، والقوة الوحيدة المهددة لاستمرار استيلائهم على السلطة أو بقائهم على وجه هذه الدنيا .

ويشعر الصالحون فى هذا البلد بالأسى ، فكيف تنحدر الأحوال بحيث لا يكون للشياطين من خلف إلا الجائرون ! بينما لا يخفى السناكيم شماتتهم من المصير الأسود الذى ينتظر الشياطين على أيدى الجائرين . فلقد عم الفساد وفاحت رائحته ، وطغى الاستبداد وتأصلت قاعدته ، حتى أصبحت مواجهة المجهول أفضل من هذا السواد العقيم . حتى إن كان هذا المجهول .. هو .. " الجائرون " .

* * * *

الأحوال

www.alkottob.com

نشط الصالحون . وانتشروا فى أرجاء البلد ، يروجون فى سريه لدعوتهم بأن الصوت هو صوت السماء . وأخذوا يجمعون العباد حولهم ، ويحثونهم على ضرورة الثورة والتصدى لجبروت الشياطين . ولقد إلتفّت حولهم أعداد قليلة ، فالخوف سكن وعشش فى النفوس ، والذعر امتلك الخلق حتى صاروا يتلفتون حولهم . ولكن ذلك لم يثن الصالحين عن ضرورة بدء المواجهة بأى جمع مهما كان محدوداً ، لأنهم آمنوا بأن الشرارة الأولى لن تنطلق أبداً مالم تنطلق فى خضم هذه الأحداث ، وبمرور الوقت ستسرى نيران الغضب رويداً رويداً فى أرجاء البلد ، فيبدأ العباد فى التجرؤ على خوفهم وتنمو بذرة الثورة ، وتصبح خشية الموت دافعاً أكبر للمواجهة بعدما كانت مصدراً للنكوص ، وعندئذ سيتأجج ويندلع طوفان الجماهير فيقتلع دولة الشياطين من جذورها ، وتشرق شمس الحق على أنقاض ليل الباطل.

وأثناء ذلك . سرى فى البلاد نبأ عزل الحاكم لكل من مستشار الأمن ومستشار الفكر والفنون ، وتوليه هو شخصياً لهذين المنصبين ، والحكم على المستشارين المعزولين بعقوبة الموت ضرباً فى الميدان الفسيح جزاء لإهمالهما الجسيم ، وقد تحدد يوم المولد النبوى موعداً لتنفيذ الحكم .

www.alkottob.com

وتلقف الصالحون النبأ ، ووجدوا الفرصة سانحة لبدء المواجهة فى هذا اليوم ، وفى ساحة تنفيذ الحكم ، حيث سيحتشد العباد ، ويصعب على قوات الأمن ملاحقة جماعتهم وسط هذا الحشد الغفير .

* * * *

وفى يوم المولد . غص الميدان الفسيح بالجماهير ، وأقيمت فى الوسط منصة عالية لتنفيذ الحكم عليها حتى يشهده كل الحاضرين . وفى الطرف الخالى من الميدان والذى أحاطته قوات الأمن لتوفير ممرٍ لعبور الحاكم حين قدومه أو مغادرته ، ظهر الحراس وهم ينهالون ضرباً على المستشارين المعزولين لإجبارهما على قطع المسافة حتى منصة تنفيذ الحكم زحفاً . وقد تفنن الحراس فى إيهام كلا المستشارين بتخفيف العذاب عمن يصل منهما زحفاً للمنصة قبل الآخر . وشهد الميدان سباقاً غريباً ، يزحف فيه رجلان كانا منذ أيام رمزان من رموز الدولة ، بينما تنهال على ظهريهما السياط لتحفيزهما على بذل المزيد من الجهد . وهللت الجماهير لتلك المباراة المثيرة التى لم تكن فى الحسبان . وبدا للوهلة الأولى أن مستشار الفكر هو الأقدر على الفوز، ولكن بعد لحظات بدأ يركبه الوهن وبدأ مستشار الأمن يقترب منه بل ويتقدم عليه . واشتعل صياح الجماهير وازداد حماسها لمتابعة السباق الفريد . وكان كلما تقدم مستشار

www.alkottob.com

الأمن يكتشف الحراس ضرب السياط عليه ، حتى أخذ الرجل يجأر كالمصروع وينتفض على الأرض أثناء زحفه بينما تقاطعت بجسده الجراح . وانتهز مستشار الفكر الفرصة وشد من عزمه لمواصلة الزحف حتى اقترب من رفيقه ، فأخذ الحراس يركزون عليه هو الآخر الضرب ، فبدا كمن أصابته لوثة حيث صار يصيح طالباً المزيد ، وكلما ازدادوا ضرباً كلما طلب المزيد ، واستمر فى تقدمه حتى وصل أخيراً إلى أسفل المنصة . واهتزت أرض الميدان الواسع من شدة صياح الجماهير وحماسها، وسارع الحراس بحمل مستشار الفكر الفائز وأعلنوا فى تشفى بأنه مادام هو الأكثر عزما فسينالله إذن القدر الأكبر من العذاب حتى الموت . وتم تقييد الرجلين استعداداً لبدء تنفيذ الحكم ، ولكن بدأ يتردد وسط همهمات الجماهير صوت هتاف غير واضح المقاطع ، صادر من أحد التجمعات بالحشد الغفير ، ثم مالبث أن بدأ يتضح مع استمرار هدوء وإنصات الجماهير ، ولم يكن إلا صوت صياح وهتاف الصالحين، ومن انضم إليهم من العباد . وأخذوا يهتفون : هى كانت عزبة أبوك .. هى كانت عزبة أبوك.. وتقلقل الجمع الغفير ، وسيطرت على الجموع حالة من الوجوم ، ولكن ظل الهتاف يتردد . وبدأ بعض العباد ينضمون إلى الهتاف مع الصالحين . وأصبح الهتاف يتردد من أنحاء متفرقة بالميدان الفسيح، وهنا بدأت تسرى حالة استنفار مضطربة وسط قوات

www.alkottob.com

الأمن المحيطة بالميدان ، وتحركت الوحدات الثقيلة وأغلقت الطرف الخالى من الميدان ، حتى تم إحكام الحصار حول الجماهير . ولكن الهتاف مالبث يتعالى ويتضخم ، وبدأ الجمع الغفير يتقدم للأمام نحو القوات المحاصرة ، فاتخذت القوات وضع الاستعداد وتأهبت للهجوم ، ولكن استمرت الجموع فى التقدم يسبقها هتافها . وأصبح الاشتباك محتوماً بعد عدة خطوات ، ولكن .. وللغرابة .. فاجأت قوات الأمن الجموع المتقدمة بالتقهقر، فاشتعلت حماسة الجماهير وتجرأ منها من ظل صامتاً وبدأ فى الهتاف . واستمرت قوات الأمن فى تراجعها والجماهير فى تقدمها ، وبدت قوات الأمن فى تقهقرها السريع كأنها تنسحب ثم باتت الأمر يأخذ شكل الفرار . وماهى إلا لحظات حتى ضج الميدان بصوت أزيز جامح ، وانشقت السماء عن سرب كبير من المقاتلات الطائرة ، فارتفعت وجوه الجماهير تلقائياً لتتابع حركتها الخاطفة ، وإذا بالقذائف الثقيلة تنهمر من تلك المقاتلات الطائرة ، وأدرك العباد وقتها لماذا فرت قوات الأمن ، فانطلقوا هاربين فى كل صوب واتجاه ، ولكن القذائف لم تتح لهم الاستمرار ، فقد تتابعت انفجاراتها وتطايرت الأشلاء مع الجثث مع حطام الميدان .. وظلت المقاتلات تقصف الميدان حتى تحول إلى حفرة عميقة مظلمة تغلى وتفور وتتلظى بأجساد العباد وحطام الجماد .

www.alkottob.com

* * * *

حالفنى الحظ أنا ونورجان ، لأننا كنا مازلنا فى الطريق إلى الميدان الفسيح عندما بدأ القصف . ولقد اهتز الطريق بنا ودهمتنا أصوات الانفجارات ، وبدا لنا الميدان كأنه اقتُلع من جذوره وتحول إلى حطام تناثر فى السماء . فولينا الأدبار سريعاً خوفاً من امتداد القصف إلى الطريق الذى نسلكه ، قاصدين الحى الذى أقطنه فى الطرف الآخر من المدينة . ولكننا ما إن وصلنا إلى مشارف الحى إلا وشاهدنا جمعاً كبيراً من العباد يسد الطريق ، فاخترقنا الجمع لنستطلع الأمر ، فإذا بقوات حاشدة من رجال الأمن تملأ جنبات الحى . وتناهى إلى سمعنا من أحاديث الواقفين بأن قوات الأمن تبحث عن دخيل من عالم الإنس تمكن من النفاذ إلى عالم الجن بمساعدة إحدى الفتيات . وما إن سمعنا بذلك حتى بدأنا فى التملص والتراجع بهدوء من وسط العباد المحتشدة ، إلى أن تمكنا من الخروج إلى الطريق . وبدا على نورجان الذهول والارتباك وظلت تردد : هل يمكن أن تكون قالت له ؟ .. وعندما استفسرت منها عما تقصده ، انهارت واعترفت لى بأنها أفشت سر علاقتنا لصديقتها التى تجمعها علاقة بأحد رجال جهاز الأمن الخاص بالحاكم . وأخذت تقسم لى باكية بأنها ما كانت لتبوح لها بسر علاقتنا لو شكت للحظة واحدة بأنها يمكن أن تكشف

www.alkottob.com

لصديقها هذا السر ، فما المصلحة التى تعود عليها من ذلك! وما الذى يعنى جهاز الأمن فى نفاذ أحد من الإنس إلى عالم الجن ؟ .. وتلاقت نظراتى بها ، وبدت محاولة البحث عن إجابات لتساؤلاتها ترفاً لا مجال له فى هذا الوقت الحرج . وسرعان ما انطلقنا على غير هدى إلى أطراف المدينة ، فمنزل نورجان لن يصبح مكاناً آمناً ، فلابد أنهم توصلوا إليه . ولم يكن أمامنا مكان أخر نلجأ إليه . كما أننا لن نستطيع الخروج من المدينة لأن كافة المنافذ مراقبة . فقصدنا أطراف المدينة ومنها توغلنا إلى المناطق الوعرة المحيطة ، وواصلنا المسير حتى اعترانا الوهن والتعب ، فجلسنا برهة لنستريح ، وزاد اطمئناننا عندما مر الوقت ولم نجد أحداً فى أثرنا ، واستغرقتنا من شدة التعب إغفاءة قصيرة ، سرعان ما استيقظنا منها على صوت حركة مفاجئة ، وإذا بهم حولنا فى كل مكان .ولكنهم لم يكونوا من رجال الأمن ، لا فى المظهر والهيئة ولا فى الزى . ولقد استفسروا منا فى خشونة عن سبب تواجدنا فى هذه البقعة ، فأجابت عليهم نورجان بأننا هربنا من القصف واعترانا الرعب فظللنا نجرى حتى وصلنا إلى هذه البقعة . ولكن لم يبدو عليهم التصديق ، لاعتقادهم بأننا مدسوسون عليهم من جهاز الأمن ، ولذلك شرعوا فى تقييدنا ،واقتادونا إلى داخل معسكرهم الرابض فى ثنايا تلك المناطق

www.alkottob.com

الوعرة... وآنذاك أيقنا بأننا لم نقع إلا فى أيدى ....."

الجائرين " .

على هامش الأحوال

احتجزنا الجائرون . ولما مر يوم ولم يجدوا أحداً فى أثرنا ، اطمأنوا إلى أننا لسنا من أعوان أجهزة الأمن ، ولكنهم داوموا على احتجازنا ريثما يقرروا ماهم بنا فاعلون . وفى حجز الجائرين كان لنا رفيق محتجز هو الآخر ولكن منذ فترة سابقة . وبحوارى معه علمت إنه من جماعة الجائرين ، ولكنهم انقلبوا عليه لتأليفه كتاباً يتناقض مع أفكارهم تحت عنوان "الإطاحة بالسلطة .. ثورة شعبية لا مؤامرة انقلابية" . وبامتداد الحوار بيننا أوضح لى بأن الكتاب الذى ألفه يمثل مزيجاً من التجربة الذاتية والرؤية التحليلية للواقع المحيط ، وأخذ يسرد لى كيف بدأ يكتشف فى مقتبل شبابه تردى الأحوال بالبلد ، وسيادة القهر وشيوع الفساد ، ومواجهته لكل ذلك بغضب مكبوت يضطرم بداخله ، حتى وصل إلى مرحلة من الغضب كان لابد فيها من الانفجار فى وجه كل هذا الكم من السواد . لذلك انضم لجماعة الجائرين لاقتناعه آنذاك بأن مواجهة هذا الواقع العفن لن تكون أبداً بالكلمات ، وإنما السبيل الوحيد هو انتهاج أسلوب

www.alkottob.com

اللكمات واللطمات والركلات . واشترك مع الجائرين فى عدة هجمات مسلحة على بعض الشخصيات السياسية وبعض المنشآت الحكومية الهامة . ولكنه تزلزل من داخله عندما اكتشف عقب تلك الهجمات ، سقوط ضحايا من الأبرياء ، الذين لا ذنب لهم إلا التواجد فى موقع العمليات أثناء تنفيذها . لذلك بدأ فى مراجعة مشروعية أسلوب النضال المسلم فى مواجهة السلطة الباغية . وفى البداية وجد أنه لابديل عن ذلك لإقصاء سلطة لاتتورع عن اقتراف كافة الآثام من أجل ضمان استمرارها على مقاعد الحكم . ولكن باستمرار إعماله لفكره ، تلاحظ له بأن النضال المسلم فى حد ذاته يحوِّل الجماعة المناضلة ضد السلطة ، من جماعة مدنية متمردة إلى جماعة عسكرية ، تكتسب كافة مساوىء النظم العسكرية ، المتمثلة فى تقديس الرأى الواحد وعدم الاعتراف بالحوار والتشاور كأسلوب للقيادة والإدارة ، والشدة والقسوة فى التعامل مع الأعداء ـ فالعسكريون إما يقتلون أعداءهم أو يأسرونهم ـ مما يحوِّل قضية إقصاء السلطة الباغية بمرور الوقت فى مخيلة الجماعات المتعسكرة إلى هدف فى حد ذاته وليس وسيلة لتحقيق العدل والخير . وبالتالى تبين له أن نجاح أية جماعة مسلحة فى الوصول إلى السلطة لن يأتى بجديد . فالوارث لن يكون خيراً من المورث ، مما يؤدى إلى إدارة الدولة فى ظل حكم تلك الجماعات بأسلوب الحرب والقتال . حيث يصبح القتل أو

www.alkottob.com

السجن هما الطريقة المعتادة للتعامل مع المعارضين السياسيين ، ويصبح القرار الأوحد للحاكم هو النظام المثالى لتحقيق الضبط والربط على المدنيين العزل ، وذلك باستعمال كافة وسائل القمع والقسوة لفرض هذا القرار . وبوصوله له ذه النتيجة تأكد له عدم صلاحية الجماعات المسلحة لتولى مقاليد الحكم بعد إقصائها للسلطة ، وإنما ينبغى عليها أن تتنازل عنها طواعية لحكومة مدنية تلتزم أمامها بتحقيق كافة الإصلاحات السياسية والاجتماعية . ولكن نظراً لاستحالة تحقق ذلك إلا على أيدى جماعة من الملائكة ، فبالتالى يصبح الوصول للسلطة من خلال النضال المسلح أمراً غير مشروع ـ ليس فى مواجهة السلطة الباغية ـ ولكن فى مواجهة الشعب نفسه .

ولقد تابع لى بأنه عقب توصله لتلك الحقيقة الهامة ، شرع فى استبصار وتقييم الواقع حوله من خلال وجهة نظر المعايير التنظيمية البحتة . فوجد بأن الجيش أصبح يشكل دولة داخل الدولة ، من خلال استمرار السلطة فى تدعيم ميزانيته الضخمة لكفالة الأجور المرتفعة والمزايا العينية والترفيهية لضباطه وأفراده ، ومن خلال توالى خروج الحكام من بين صفوفه . بحيث أصبح الجيش هو الذى يحكم وهو الذى يكفل حماية الحكم من أية حركة انقلابية أو حتى انتفاضة شعبية . وبالتالى أصبح هناك

www.alkottob.com

ترابط عضوى بين الجيش كمؤسسة وبين النظام القائم كسلطة . وهذا الترابط لايمكن فصمه بأيه حركة انقلابية، لأنها ستُواجه بجيش كامل يتصدى لها وعلى أهبة الاستعداد للقضاء عليها قضاءً مبرماً بلا أدنى رحمة . وأية محاولة لاختراق صفوف الجيش من خلال استقطاب بعض قواده أو ضباطه محكومٌ عليها بالفشل ، لأن هؤلاء القادة والضباط أصبحوا يباركون هذا النظام الذى يغدق عليهم الكثير ، ولديهم الاستعداد لسحق كل من تسول له نفسه محاولة تهديد بقائه أو استمراره . كما أن أية محاولة للاستيلاء على إحدى المحافظات الحدودية واستخدامها كرأس حربة ومركز قيادة لإدارة النضال المسلح ، هى محاولة سيكتب لها الفشل . فلقد درج النظام الحاكم على تسليم زمام حكم تلك المحافظات لقيادات عسكرية مرموقة ، تعلم علم اليقين بأن أولى واجباتها هى مواجهة ووأد أقل حركة انقلابية تبغى الاستيلاء على المحافظة . كما درج النظام الحاكم أيضاً على تسليم زمام حكم المحافظات التى تكثر بها تنظيمات الجائرين لقيادات أمنية بارزة ، أولى واجباتها هى ملاحقة هذه التنظيمات للقضاء عليها قضاءً تاماً .

وهكذا تتضاءل كثيراً الفرص أمام أية جماعة مسلحة للإطاحة بالسلطة ، فى مواجهة الانحياز المطلق من الجيش للنظام القائم ،

www.alkottob.com

وفى ظل السيطرة العسكرية الكاملة على المحافظات الحدودية . وفى إطار كل ذلك تفقد أية جماعة مسلحة القوة المحركة للنضال بالإضافة إلى الأرض التى تتحرك عليها . وتصبح حينئذ الإطاحة بالسلطة من خلال التمرد المسلح مغامرة غير واقعية ومحفوفة بالمخاطر والأهوال، وذلك وفقاً للمبادىء والمعايير التنظيمية المجردة .

لذا .. فإن السبيل الوحيد للإطاحة بالسلطة يتمثل فى قيادة زمام المبادرة للثورة الشعبية ، من خلال الالتحام الدءوب والمستمر بكافة التنظيمات الشعبية والأهلية والخيرية ، بالإضافة إلى النقابات والجامعات والمدارس والأندية ودور العبادة ، ومداومة نشر الدعوة للثورة وسط صفوف تلك التجمعات إلى أن تندلع من رحم الغيب ، ولكنها دائما ما تكون آتية لامحالة . فكل نظام باغٍ يحمل بداخله جرثومة فنائه من خلال عدم استبصاره لفيضان طغيانه وفساده ، وعدم تصديقه لترعرع بذور التمرد داخل نفوس رعاياه ، إلى أن تنفجر الثورة فجأة لتزيل العهد القديم من جذوره وتهيىء التربة للعهد الجديد بكافة آماله وتطلعاته . ولئن بدت أية ثورة شعبية فى بدايتها كانتفاضة فوضوية ، مما يدعو بعض الشياطين إلى الانخراط ضمن صفوفها للقفز من خلالها مرة أخرى إلى مقاعد السلطة . إلا أن مسئولية الشعب عن

www.alkottob.com

الثورة ويقظة روحه الوطنية للدفاع عن حقوقه ، سرعان ما تجعله يقف بالمرصاد لمواجهة أية ردة للوراء . وبذلك تلتزم أية سلطة تأتى فى عقب ثورة شعبية بالتعبير عن آمال الشعب وطموحاته ، إن لم يكن حباً فى الشعب فخوفاً من غضبته وثورته .

وفى نهاية حوارنا .. أخبرنى بأنه دعا الجائرين فى نهاية كتابه إلى التخلى عن فكرة الانقلاب المسلح للإطاحة بالسلطة ، والإيمان بفكرة الثورة الشعبية كمخرج وأمل وحيد باقٍ لإقصاء السلطة الباغية .

..... عندما خلوت لنفسى بعد نهاية حوارى مع رفيق الحجز ، اتضح لى لماذا إذن احتجزه الجائرون . فكتابه ذلك يمثل تفريغاً مريعاً لنظريتهم فى النضال ضد السلطة ولكافة أساليبهم التنظيمية للإطاحة بها ، وبالتالى كان لابد من إسكات صوته . ولقد أشرفقت عليه لأننى أيقنت أنهم قاتلوه لامحالة ، إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد . ولكن .. تُرى هل سيرى كتابه النور يوماً ما ؟ وهل ستعرف أجيالٌ قادمة معنى حيرته العقلية ؟ .. يبدو أن تساؤلاتى ستظل بلا إجابة ، فما معنى النور فى هذه الظلمة الحالكة ... وأين هى الأجيال القادمة والعباد لايملكون حتى اللحظة الحالية ... وأنا ونورجان ماذا تخبىء لنا اللحظة القادمة ؟ ... وما

www.alkottob.com

نجونا من الشياطين إلا لنقع فى أيدى الجائرين .... ولكن لماذا هذا اليأس ؟ لقد استمرت الحياة منذ آلاف السنين رغم كل شرور العالم ، ولم تقف للحظة واحدة ، لا لفرح أو لحزن ، وما ظنه العباد خالداً أصبح بمرور الزمن هشيماً تذروه الرياح . فمتى إذن يذهب الزبد جفاءً . ومتى يمكث ماينفع العباد فى الأرض .. متى .. متى ؟

* * *

" ..... ومنا دون ذلك ....."

(سورة الجن ـ الآية)

السناكيم

هم الذين سقطوا من قعر القفة ، فلا سعر ولا وزن لهم . ورغم كونهم الأغلبية والأكثرية ، إلا أنهم الأغلبية الفقيرة المريضة الجاهلة ، والأكثرية المغلوبة على أمرها ، المنقادة خلف أقدارها . فمنذ فجر التاريخ وهم يدورون فى الساقية الجهنمية معصوبو الأعين . فشيدوا المقابر والمعابد والقصور الفارهة للحكام الآلهة

www.alkottob.com

، بينما عاشوا هم فى الأكواخ والجحور . وزرعوا وحصدوا ملايين المحاصيل والأفدنة لموجات الغزاة المتلاحقة، بينما اقتاتوا هم على الفتات والقشور . ولأنهم بعدما تخلصوا من الغزاة الأجانب فتحوا أحضانهم للغزاة الوطنيين ، فقد حق عليهم القول بأن يظلوا إلى الآن يبلعون الحصرم ويسكنون القبور .

وهم غارقون فى القهر حتى آذانهم . فكما يتجرعونه على أيدى حكامهم ، فإنهم أيضا يسقونه لبعضهم البعض كترياق مر ، كأنما يحصنهم ضد مرارات حياتهم البائسة . فتراهم كلهم جبابرة على بعضهم ، سواء فى علاقاتهم الأسرية أو الزوجية أو الاجتماعية أو الوظيفية أو التجارية أو حتى العاطفية. ولا جدوى من حلمهم الدائم بالحرية ، طالما فقدوا القدرة على ممارستها وتطبيقها ولو حتى على ذواتهم .

ولعل الفضيلة كالحرية تمثل مأزقاً خطيراً فى حياتهم . فهم يرفعون رايات الفضيلة وشعاراتها ، ويهتفون بمبادئها وقيمها ، بينما تتلوى أجسادهم مع بعضهم البعض بنيران الرغبة المحرمة خلف الأبواب والحجب والأستار ، وتقترف أياديهم وألسنتهم أفظع الآثام فى أوكار الخفاء . وهذا التناقض يفرض نفسه حتى على إيمانهم ، لأنهم صاروا يعبدون الله بما لم

www.alkottob.com

يطالبهم به ، بينما يكدسون ما طالبهم به فى الحجرات الخلفية لقلوبهم وعقولهم ، حتى نسوا ماذُكِّروا به ، فحبطت أعمالهم .

ولقد كان الجنس دائما هو لذتهم الوحيدة الموهوبة لهم بلا ثمن . ولا يعنيهم إن انقذفت فى الكفوف أو الفروج أو الأدبار . فبقدر ما ضعضع البؤس ثقتهم فى أنفسهم حتى باتوا لايصدقون بأن النشوة يمكن أن تترعرع بين أحضانهم ، بقدر ما صاروا يتعجلون قطف ثمار الرغبة حتى أصبحت بلا بريق أو وهج . لذلك انزلقوا فى مهاوى الكيف والسطل عسى يمنحهم الوهم ماسلبهم الواقع من أحلامهم. وصار التناسل هو إنجازهم الوحيد ، وهيكلهم الشامخ فى وجه الزمن العنيد ، لتخليد ذكراهم وأسمائهم وأنسابهم . طمعاً فى أن يعوضوا بالذرية مالم يسعفهم به زمانهم ، ولكن دائماً ما أثبتت الأيام لهم ، أن الجنس مثلما كان هو داءَهم ، فإن الذرية كانت هى عقابهم .

إنهم السناكيم فى نظر الشياطين . المستضعفون الغافلون فى عرف الصالحين ، الضالون الجاهليون فى رأى الجائرين . ولكنهم كانوا ذلك أم كذلك ، فهم دائما المنتصرون رغم عجزهم . فقد انتصروا بمرور الزمن فقط على كل أعدائهم ، لأنهم اعتنقوا الحكمة الأزلية فى الإيمان بالموت كسلام لحل كافة أزماتهم .

www.alkottob.com

فقد كان لهم الرحمة عندما استطالت عذاباتهم بينما كان النقمة على كل من استعبدهم وأذل أعناقهم .

ولأنهم تعودوا دائما أن يتجاهلوا النظر فى مرآة أحوالهم . تجدهم يبغضون من يذكرهم بخضوعهم وضعفهم ، ويعشقون من يزيف لهم سلبيتهم وفشلهم . ولذلك كم لعنوا من كانوا يستوجبون التكريم ، ورفعوا من كانوا يستحقون التنكيل .

ولعل المتبصر فى شئونهم يتعجب من كونهم ضحايا جلادين ، فرائس وصيادين ، أبرياء ومتهمين . فلقد جمعوا كل الأضداد ، ومارسوا كافة المتناقضات . ولئن لم يرسوا على شاطئ يودعون بعده تيههم و ضياعهم . فإنهم سيصبحون الذين يعبدون الله على حرف ، فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم ، فخسروا الدنيا وخسروا الآخرة . خسروا الدنيا والآخرة . وذلك هو الخسران المبين .

* * * *

آخر الأحوال

لبثنا فى حجز الجائرين يومين . وفى صباح اليوم الثالث اكتشفنا غياب رفيقنا فى الحبس . وعلمنا بأنهم قتلوه عقاباً على فكره

www.alkottob.com

المناهض لأفكارهم .وتملكنا الرعب أنا ونورجان ، فإذا سولت لهم أنفسهم قتل واحد منهم ، فماذا سيفعلون بنا ؟ وتزايد رعبنا أكثر عندما تناهى إلى سمعنا ما نقله لهم مندوبهم الذى يزودهم بالغذاء من المدينة ، من أن قوات الأمن تبحث بشراسة عن رجل وامرأة هاربين لعلاقته ما بالصوت وسرقة صولجان الحاكم ، وأن ثمة أقاويل كثيرة تؤكد بأن الرجل من الإنس . لذلك نصحهم بضرورة الرحيل من هذه البقعة لوقوعها آجلاً أم عاجلاً فى دائرة تحركات الحملات التفتيشية لقوات الأمن .

وبمجرد رحيله هرعوا إلى بعضهم البعض ليتشاوروا فيما سيفعلون بنا . فثمة من اقترح احتفاظهم بنا كرهينة يمكن مساومة الحاكم بها لتخفيف الملاحقة الأمنية لجماعتهم . ومن اقترح ضرورة التوصل إلى سر الصوت ومكان الصولجان من ذلك الإنسى المزعوم ، وتسخير قدراتهما للإطاحة بالحاكم . ولكن لم يستمر جدلهم طويلاً ، ففجأة بدأت أصوات بعض الانفجارات حول المكان ، وسرعان ما عمت الفوضى وبدأت القذائف تنهمر على كل شبر . وبدا الأمر وكأنه حرب إبادة للقضاء على كافة الهاربين بهذا الوكر . و ماهى إلا لحظات حتى توقف القصف بعد أن سقط كافة الجائرين صرعى . وعمت المكان حركة نشيطة فوجئنا بعدها بعدد من رجال الأمن يقتحمون الوكر ، وكانت مفاجأة لهم

www.alkottob.com

أن يعثروا على رجل وامرأة مقيدين بالداخل . فألقوا القبض علينا واقتادونا إلى قائدهم الذى ما إن رأنا حتى بدت عليه علامات الذهول وعدم التصديق . فاقترب من نورجان ليتحقق من أوصافها ، واقترب منى بحذر يقرُب إلى الخوف وأخذ يدقق فى ملامحى . ثم صاح فى رجاله بأن يشهروا أسلحتهم ويضربوا حولنا سياجاً أمنياً بأجسادهم ، فقد وقع الصيد الثمين الذى ينتظره الحاكم بفروغ صبر . وعلى الفور قام بتكليف عفريتٍ بالطيران ليأتيه على وجه السرعة بمدد إضافى من القوات ، لتأمين عملية نقلنا من هذه البقعة مروراً بالمدينة وحتى قصر الحكم ، وأيضاً لإبلاغ الحاكم بنبأ القبض على الإنسى الدخيل .

وما هى إلا دقائق حتى وصل المدد وامتلأت البقعة بعدد كبير من القوات وبدأت مسيرة التحرك نحو المدينة . حيث سرنا أنا ونورجان مكبلين بالأصفاد وحولنا حلقة من الحراس الأشداء شاهرين أسلحتهم نحونا ، بينما توزعت باقى القوات لتحيط بتلك الحلقة من كافة الجهات ، فى حين تولى العفاريت الطيارون حراسة الموكب من الجو .

اخترق الموكب المنطقة الوعرة غير المأهولة . وبدت المدينة من بعيد مقطبة شاحبة تعلوها غبرة . وانتابتنى غمامة من الذهول والإحباط ، ووجدتنى أغوص فى هوة سحيقة من الندم والخسارة ..

www.alkottob.com

فمالى وهذا العالم البائس بهؤلاء المسحوقين و أولئك الجبابرة ... ولماذا تركت عالمى لأتورط فى مصيدة ربما أدفع حياتى لها ثمناً .. وحانت منى التفاتة نحو نورجان التى اعتراها الوهن وامتلكها الضياع حتى تبدلت من حال إلى حال آخر ، بعدما غادرتها السكينة وتحجر بداخل وجهها الجمال . وراح الحراس من حولنا يتجاذبون أطراف الحديث قطعاً للمسافة ، فقال أحدهم إن البلد أصبح فى وضع خطير ، والأحوال تسوء يوما بعد آخر ، ولا يمر يوم حتى تندلع المظاهرات يقودها الصالحون وخلفهم الآلاف من السناكيم، ورغم أن الجيش يواجه المتظاهرين بلا رحمة إلا أن المظاهرات مازالت تندلع ، حتى بات عدد القتلى إلى الآن يقارب المليون نفس . وأضاف آخر هامساً بأن جده صرح له بأن البلاد لم تشهد مثل هذه الأحداث إلا فى ظل عهد الملكية إبان الاحتلال ، حيث كان الشعب وقتها بكافة طوائفه يمتلك حساً وطنياً عالياً ووعياً سياسياً عميقاً ، وكانت المظاهرات الطلابية والعمالية والنقابية والحزبية والنسائية تجوب البلاد لمواجهة نير الاحتلال ، ولكن تبدلت الأحوال بعد قيام الجمهورية ، فراح الشعب فى سبات عميق ، وانذهل العباد فى الجرى وراء لقمة العيش . وقال ثالث إن الجيش تولى مهمة ضرب الشعب بينما تولينا نحن مهمة إبادة الجائرين ، ولا أحد يدرى على أى شكل ستكون النهاية .....

www.alkottob.com

ووصل الموكب إلى مدخل المدينة . وبدأنا فى اختراق شوارعها وضواحيها . كانت الطرق خالية تماماً من العباد وتتوزع على مفارقها ومداخلها وحدات الجيش بأسلحتها الثقيلة . بينما سدت شوارع أخرى تماماً أثر انهيار منازلها وتراكم حطامها . وبدا كأن المدينة تعرضت لحرب وحشية ، فالجثث كانت متناثرة فى بعض الأركان والزوايا ، بينما اختلطت فى الجو رائحة الموت برائحة الغبار .

ولاح لنا قصر الحاكم . مهولاً فارهاً ينتصب قاطعاً الفراغ من حوله ، وتحاصره قوات حاشدة من الجيش بأسلحتها ومعداتها الثقيلة . واخترق الموكب الخطوط الأمنية المتتالية حتى وصلنا إلى مدخل القصر . وظهر حراس أشداء قاموا بتسلمنا من القوة المرافقة ، واقتادونا فى ممرات طويلة متتالية كأنها بلا نهاية ، حتى وصلنا فجأة إلى فتحة ضيقة ، ما إن نفذنا منها ، حتى ظهر لنا بهو شاسع الاتساع شاهق الارتفاع ، وفى آخره ينتصب عرش عالٍ ينبعث منه وهج وبريق يخطفان الأبصار ويغشيانها حتى لا يكاد يظهر ما بداخله , وتعلوه لوحة ضخمة مكتوب فيها بحروف مشعة " الحكام ..... مُلْهَمون " .

وطرحنا الحراس على أرض البهو و إذا بصياح يتجلجل مخلفاً صدى عجيباً فى الأركان :

www.alkottob.com

ائتوني به .. أعذبه بنفسي .

كان صوته .. نفس الصوت الذي سمعته بدار العبادة ، ولم تتح لي رؤية صاحبه يوم طردوني إلى الميدان الفسيح عارياً . وعلى الفور قام الحراس بجذبنا جراً حتى أصبحنا أسفل العرش . ورفعت وجهي فغشيني الوهج المبهر ، وبدا لي في وسطه خيالٌ لجسد ، سرعان ما بدأ يتضح لي عندما تعودت عيناي على الضوء . كان جالساً على العرش . وتسمرت عيناي بوجهه . ولكن .. لكن .. لكنني أعرف هذا الشر .. وأعرف هذا الجبروت .. أعرفه وإن اختلفت السحنة وتباينت الملامح وتبدلت العوالم وتغير الخلق .. إنه هو .. أو كأنه هو .. هو .. أعرفه بذاكرتي البشرية التي عاودتني فجأة .. وذكرتني في لمحة واحدة .. بكل هذا الذي تركته في عالمي هناك .. وغفلت عنه هناك .. بكل هذا الذي عاينته هناك و قهرني هناك .. وكيف الآن .. والآن فقط ودفعة واحدة .. أُدرك كل ما غفلت عنه هناك طوال العمر .. وكأن تعايشنا مع الشر يجعلنا نألفه ، رغم كراهيتنا له .

وانتصبت قائماً .. ووجدتني أرددها لمن هو هنا .. ولمن هو في عالمي هناك .. لمن أقف تحت عرشه هنا .. ولمن سأقف تحت عرشه هناك .. وجأرت بكل كياني .. وبدا صوتي كأنما يتردد هنا و هناك ..

" هي .. كانت .. عزبة .. أبوك "

www.alkottob.com

***

دكتور / محمد محفوظ

www.alkottob.com